رواية

العتبة الحسينية المقدسة
مؤسسة الخالق العظيم
١٦٥٤

القبر 306

عمار السعد

الرواية الفائزة بـ (جائزة الرواية العربية/ الدورة الأولى)



الإشراف العلمي
اللجنة العلمية في مؤسسة الخالق العظيم
الإصدار ٣٩

القبر ٣٠٦

رواية



رواية

القبر ٣٠٦

عمار السعد

بطاقة الفهرسة

PJ7962.A285 Q23 2025

السعد، عمار - مؤلف.

رواية القبر ٣٠٦/ عمار السعد. - الطبعة الاولى. - النجف، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢٥/ ١٤٤٧ للهجرة.

١٧٠ صفحة؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة؛ ١٦٥٤)، (مؤسسة الخلق العظيم؛).

١. القصص العربية ـ العراق ـ قرن ٢١. ٢. القصص الاخلاقية. أ. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

ISBN : 978-9922-735-87-0

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(٣٤٩٤) لسنة (٢٠٢٥)

هوية الكتاب

القبر ٣٠٦

المؤلف: عمار السعد .

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ٢٠٢٥م

دار الطبع: مطبعة دار الوارث.

إشراف ومراجعة: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم.

الناشر: العتبة الحسينية المقدسة .

تقويم النص و التدقيق اللغوي : مؤسسة الخلق العظيم .

المخرج الطباعي: السيد مرتضى حسين الهاشمي.

تصميم الغلاف: مرتضى ماجد الدالي .

اللجنة العلمية

الشيخ صباح الساعدي

د. السيد زيد البطاط

د. حاتم البخاتي

الشيخ غانم الجبوري





جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



إصدار
مؤسسة الخلق العظيم

كلمة المؤسسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته الزاكيات على نبيه الكريم الموصوف بالخلق العظيم، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فبما أنّ للأدب بالغ الأثر في نفوس مخاطبيه، وأن عشاقه الذين انبهروا بهذا اللون من الكتابة هم من مختلف الفئات والأعمار والمستويات، فقد رأت مؤسسة الخلق العظيم للدراسات الأخلاقية ـ وفي صدد اتباع السبل المؤثرة لنشر القيم الأخلاقية وترسيخها في المجتمع العربي ـ أن من اللازم توظيف هذا النمط المؤثر من الكتابة، فتبلور عن ذلك مشروع الأدب الأخلاقي والذي يعمل في المجالين التاليين:

الأول: الشعر؛ حيث عمدت المؤسسة إلى توظيف الأشعار الهادفة ذات المضامين الأخلاقيّة المؤثرة، وذلك عن طريقين؛ هما:

أ) إعداد موسوعة ألفبائيّة للأشعار الأخلاقيّة، حيث تبوّب الأشعار ـ وفق العناوين الأخلاقيّة المتضمنة فيها ـ في ترتيب ألفبائي، لتكون رافداً مهمّاً للباحثين والخطباء وهواة الشعر والأدب.

ب) كتابة الشعر الأخلاقي في الأحداث المعاصرة؛ فتتم دعوة الشعراء والأدباء واستكتابهم لتسليط الضوء على الفضائل الخُلقيّة

والظواهر الاجتماعيّة الإيجابيّة بغية دعمها وترويجها، ونقد الظواهر الاجتماعيّة والأخلاقية السلبيّة ومواجهتها.

الثاني: الرواية السردية؛ ويتمّ العمل فيه على تأليف روايات ذات مضامين أخلاقية يكون المستهدف فيها فئات الأطفال والناشئة والشباب، من خلال صياغة المفاهيم الأخلاقيّة، أو كتابة القصص الأخلاقية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام والعلماء والعظماء، بأسلوب روائي معاصر متناسب مع الفئات المستهدفة.

وفي ضوء ذلك فقد أُطلقت مسابقة الرواية العربية والتي تهدف إلى دعم المشهد الثقافي والأدبي في الساحة العربية، ليتحقق من خلال ذلك نشر القيم والمبادئ الأخلاقية النبيلة، وقد لاقت إقبالا واسعا من قبل الأدباء المحترمين في العراق والوطن العربي، وشارك في نسختها الأولى من مختلف البلدان العربية، إذ استقبلت المؤسسة مشاركات واسعة من خمسة عشر بلد عربي، وبالتسلسل التالي:

١. مصر العربية: ١٠٦ مائة وستة رواية.
٢. العراق: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٣. الجزائر: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٤. المغرب العربي: ٢٨ ثمانية وعشرون رواية.
٥. سوريا: ١٣ ثلاثة عشر رواية.
٦. تونس: ١٠ عشرة روايات.
٧. اليمن: ٩ تسع روايات.

٨. لبنان: ٥ خمس روايات

٩. السودان: ٣ ثلاث روايات.

١٠. البحرين: ٣ ثلاث روايات.

١١. ليبيا: ٢ روايتان.

١٢. الأردن: ٢ روايتان.

١٣. الكويت: ١ رواية واحدة.

١٤. فلسطين: ١ رواية واحدة

١٥. الصومال: ١ رواية واحدة.

وبما أن المسابقة كانت موزعة على فئتين من الكتّاب: كبار الكتاب، وفئة الشباب، فقد كان النصيب الأوفر للروايات الواردة من قبل الفئة الأولى؛ إذ بلغ عددها مائة وستة وثمانين رواية، فيما بلغ عدد الروايات الواردة من قبل فئة الشباب ثمانية وثمانين رواية.

ونتيجة للآليات المتبعة في وضع الضوابط والشروط المقررة من قبل اللجان القائمة على المسابقة، فقد تم اختيار الروايات التي حظيت بالفوز من بين الروايات المنافسة والكثيرة في ضوء المعايير الأدبية والفنية وغيرها من الشروط التي أُعلن عنها في الجائزة.

وقد حازت الرواية الماثلة بين يدي القارئ الكريم المرتبة الثالثة من فئة الشباب، والتي سلط كاتبها الضوء فيها على موضوعة غاية في الأهمية، ألا وهي قصة طفل صغير ترعرع بين القبور، وقد خبأت له الحياة مفاجآت أضيفت إلى حرمانه ومعاناته التي مر بها..

ونحن بدورنا إذ نثمن هذا المجهود المبارك الذي قدمه الأستاذ عمار نزار المحترم ندعو الله العلي القدير أن يوفقه للمزيد من العلم والعمل الصالح.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الأفاضل في اللجان العاملة على هذه المسابقة القيمة، وأخص بالذكر: الروائي السيد نعيم آل مسافر المحترم، والأخ الدكتور علي كاظم داوود المحترم، والأخ الدكتور عباس فاضل عبد الله المحترم، والأخ الدكتور نعيم خماس جبر المحترم، والأخ الدكتور مهدي عيسى البطاط المحترم، والأخ الدكتور ناصر الجابري المحترم.

وكذلك الإخوة في اللجان التنظيمية: الأستاذ حيدر عبد الهادي حسن المحترم، والأستاذ السيد مقداد جاسم الغرابي المحترم، والأستاذ محمد ماجد هاشم المحترم، والأستاذ السيد محمد علي أمجد حميد المحترم، والأستاذ محمد حسين علي محمد رضا المحترم، والأستاذ منتظر زيد كامل المحترم، والأستاذ أمير أبو الزين المحترم.

وفي الختام أعرب عن عرفاني وامتناني لسماحة المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) على رعايته الأبوية للمؤسسة ومشاريعها ودعمه المتواصل لهذا المشروع وبقية المشاريع الأخرى فيها، وكذلك جناب السيد الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة جناب الحاج حسن رشيد جواد العبايجي (دامت توفيقاته) على حرصه وحضوره الفاعل في هذا النشاط المبارك، كما أتقدم

بالشكر للإخوة الذين ساهموا في الإشراف والمراجعة الفكرية والتدقيق اللغوي، وأخص بالذكر: الدكتور السيد حاتم البخاتي، والدكتور السيد زيد البطاط، وجناب الشيخ غانم الجبوري، وجناب السيد قتاد الحسيني، سائلا المولى عز وجل أن ينفع بهذا العمل الذي قدموه وأن يأخذ بأيديهم لما فيه خير وصلاح.

والحمد لله رب العالمين.

مدير المؤسسة

الشيخ صباح عباس حسن

١٢ ذو الحجة ١٤٤٦

٩/ ٦/ ٢٠٢٥م

(١)

النَّجف، عام ٢٠٠٤

جلس هادئاً على حافَّة السَّرير، تدلَّت بطنه إلى الأسفل من فنيلته الدَّاخليَّة البيضاء، شَابَكَ أصابعه وهو ينظر إلى الأرض، اتَّسعت حدقتا عينيه دون أن يرمش، يجول القلق في رأسه مثل مجموعة غربان سوداء. كان طفله يلعب في منتصف الغرفة بعلبة ماء فارغة، مستمتعاً بإصدارها أصوات عندما يضغط عليها بيدين ترفتين عمرهما عام واحد. كان أنيقاً، حيث إنَّ أباه قد ألبسه للتَّوِّ قبل جلوسه على السَّرير وهو يتفحَّص البيت ربَّما للمرَّة الأخيرة، كان بيتاً صغيراً جدّاً، تشعر بأنَّك لا تستطيع التَّنفُّس فيه. كأنَّ البيوت تشيخ مثل أصحابها، فتنكمش فوق ساكنيها. وبالرَّغم من أنَّ الكهرباء كانت مقطوعة، إلَّا أنَّ هناك حزمة ضوء تدخل من نافذة المطبخ، لتنتهي فوق كومة أوانٍ غُسلت للتَّوِّ ووُضعت بجوار حوض الغسيل الَّذي يصدر صنبورهُ صوتاً رتيباً لقطرات الماء. عندما نهض من السَّرير الَّذي أصدر صريراً كأنَّه يشكو وزن رشيد، اتَّجه نحو خزانة الملابس، كانت هنالك مرآة داخل باب الخزانة، انعكست صورته بشكل يجعله يشك في أنَّه ينظر إلى شخص آخر، شخص ليس له أيّ ارتباط برشيد طعمة؛ كيف يمكن لملامح الوجه أن تتغيَّر هكذا خلال عام واحد! أدار وجهه عن المرآة وأخذ من الخزانة قميصاً سماويّاً

وبنطلوناً أسود، وبعد أن ارتداهما جلس ليكتب رسالة. بدأ بالتَّأمُّل والتَّفكير أوَّلًا، ثمَّ بدأ يكتب على عجالة حينما تذكَّر أنَّ طريق بغداد يُغلق مساءً، حيث يصعب الوصول إلى العاصمة ليلاً من جميع المحافظات، على الرَّغم من أنَّ طائرته ستقلع بعد تسع ساعات، لكنَّه يريد التَّواجد في المطار باكراً. وضع رسالته داخل مغلَّف أبيض كُتب عليه: (إلى زوجتي، أو إلى الطَّبيب نديم الجفَّار). وضع المغلَّف في جيب الحقيبة الَّتي علَّقها على ظهره، بعد أن تأكَّد لمرَّة أخرى من وجود التَّذاكر والجوازات، ثمَّ انحنى ليحمل طفله الذي نام وسط الغرفة، والذي أكمل نومه على كتف أبيه بفم نصف مفتوح. أخذ الأب حقيبة كبيرة تسير على عجلات كان قد جهَّزها اللَّيلة الماضية، وعندما أراد الخروج استدار وألقى نظرة أخيرة، أحسَّ أنَّه سيغادر ذكرياته لأوَّل مرَّة، رغم أنَّه لم يعُد يبهره البيت بعد أوَّل ليلة من وفاة أمّه، لكنَّه يشعر بأنَّ جدرانه المتشقِّقة تحمل روحها، صوتها وضحكاتها. أمَّا والده... الأب الَّذي تبرَّأ منه منذ عامين؛ بغضاً بزوجته الَّتي يفتقدها هي الأخرى. أطلق حسرة ثقيلة حينما تذكَّر أنَّه أراد أن يلتقي بهِ قبل يومين ليودِّعه، لكنَّ الأب ردَّه بطريقة قاسية.

وقف عند باب منزله، أطلق شهيقاً مرتجفاً؛ لأنَّه يعلم أنَّ كُل شيء ليس على ما يرام، الطَّقس امتزج بالرُّطوبة، والهواء حار خانق يُشعره بأنَّه يعيش داخل فم تنِّين، جدران المدينة القديمة كأنَّها تريد أن تلتحم ببعضها. أغلق الباب بقفل كبير، ثمَّ رفع يده باتِّجاه الضَّريح المُقدَّس،

وتمتم بكلمات غامضة همس بها، جعلت عينيه تغرقان بدموع لا تُفسَّر، تجمَّعت ونزلت دفعة واحدة مثل قطرة مطر. مسح عينيه بمنديل قماش، ثمَّ أرجعه إلى جيبه، وجرَّ حقيبته حيث العجلات كانت تدور بصعوبة على الأرض الخشنة، مصدرة صوتاً يُشبه صوت فرن الغاز.

سار بين الأزقَّة الضَّيِّقة، والَّتي كانت شبه خالية من المارَّة، وصل إلى (شارع الرَّسول)، تحسَّس جيب قميصه ليتأكَّد من هويَّته تحسُّباً لوجود نقطة تفتيش عسكريَّة، فهو لا يعرف ألا يزال هناك حظرٌ للتَّجوال أم لا، لا سيَّما أنَّ المدينة على مشارف حرب مع القوَّات المحتلَّة، تلك الأخبار الَّتي بدأ النَّاس بتداولها في الفترة الأخيرة. حينما وصل الشَّارع، الَّذي عُرف بازدحامه، كان هادئاً تماماً كمقبرة، المحال مغلقة، والشَّارع يخلو من المارَّة. تعرَّق جسده، وبدأت تنتشر على قميصه بقع متفرِّقة، زاد من وتيرة خطواته حينما سمع محرِّك سيَّارة يُدار، لم يلتفت للخلف على الرَّغم من تقدُّمها واقترابها منه، ودون أن يستدير دخل في أوَّل زقاق من أزقَّة المدينة القديمة، صاح صوت خلفه: (قف)، لكنَّه لم يسمع سوى صوت قلبه وأنفاسه المرتجفة. ترك حقيبته الَّتي يجرّها وركض بصعوبة بين الأزقَّة وهو يحمل طفله، لكنَّهم لحقوه بسهولة، وعندما رأى سلاحهم كأنَّه سبَّابة شيطان موجَّهة نحوه، ارتعد وجلس على ركبتيه وهو يحتضن ابنه بقوَّة، وكأنَّه يريد أن يخبِّئه داخل قلبه. كانت فوَّهة المسدَّس مصوَّبة على رأسه، بعيداً عن الرَّحمة البشريَّة، جاهزة لتأدية دورها المظلم. انتُزعت حقيبة ظهره، وبعد أن فُتِّشت من قبل الشَّخص

الآخر، أومأ برأسه بإشارة خفيَّة إلى رفيقه، والَّذي قال اسمه ـ بطريقة تشبه تلحين أغنية من ثلاث كلمات ـ: (الطَّبيب رشيد طعمة). أراد رشيد أن يتكلَّم، لكنَّ صدى صوت الرَّصاصة اخترق الجدران المتهالكة. سقط أرضاً، وكانت الرُّؤية تنعدم سريعاً، صوَّب نظره على ابنه الَّذي يسمع بكاءه على هيئة صدى، وكأنَّه صوت ألله الأخير. وقبل أن يُغلق عينيه إلى الأبد، رأى رجلاً يحمل ابنه ويرحل بعيداً...

ثمَّ رحل هو الآخر رحلته الأبديَّة...

(٢)

النَّجف، بعد عشرين عام

شعر سليم أنَّ يده بدأت بالخدر وهو يطرق باب تلك الغرفة الوحيدة الَّتي تقع في منتصف مقبرة وادي السَّلام، يحمل مجرفته على كتفه، الَّتي يستعملها أحياناً كعكَّاز، ويلفُّ غترته على رأسه، حتَّى أنَّ حنجرته قد تجرَّحت وهو يصيح بِاسم صديقه الَّذي يعرف ثقل نومه. كان الطَّقس حارّاً، والغبار يتطاير في الهواء بفعل رياح السّموم الَّتي هبَّت منذ الصَّباح الباكر، وقف متحيِّراً كيف يمكنه إيقاظه. كان يعرف أنَّه داخل تلك الغرفة، وبالرَّغم من ذلك قطع الشَّك وهو يعرج بسبب قدمه الَّتي أصابتها شظيَّة قنبلة يدويَّة أُلقيت بالقرب منه أثناء قتاله في إحدى المعارك ضد الإرهاب. اتَّجه إلى نافذة الغرفة الخلفيَّة، دفعها بقوَّة لتنطلق في مسارها، وليصدح صوتها عند ارتطامها بالجدار، فسقط أمير من سريره وهو فزع.

ـ صباح الخير، أمير.

قالها وهو يبتسم.

نظر له أمير طويلاً وهو يفرك نصف وجهه، بعد أن تأكَّد أنَّ سليماً هو من دفع النَّافذة بتلك القوَّة. أراد أن يشتمه، لكنَّه أطلق تأتأة وصرَّ على أسنانه وسكت. مدَّ يده متلمِّساً هاتفه ليعرف الوقت، لكنَّ سليماً قال له:

ـ السَّاعة الثَّامنة الآن، وهنالك جنازة قادمة!

تجاهله أمير والتقط هاتفه بعينين شبه مفتوحتين، بسبب الضَّوء الَّذي اخترق ظلام الغرفة.

كرَّر سليم عليه الخبر، كأنَّه تدارك فعلته:

ـ السَّاعة الثَّامنة، وهنالك جنازة قادمة.

لم يرد عليه أمير، نهض وكأنَّه يحمل جسده كثقل، في حين جلس سليم تحت النَّافذة واضعاً مجرفته بجانبه وممدِّداً قدميه. تقلُّبات الزَّمان جاءت بهِ إلى حيث هو الآن، فعندما خسر عمله كحمَّال في سوق الشُّورجة ببغداد بعد أن أصابته تلك الشَّظيَّة، عاد إلى النَّجف حيث تسكن عائلته، وفي بداية هذهِ العودة عرضت الحياة لهُ منحى مختلفاً، بدأ بالعمل في أحد مكاتب دفن الأموات الَّذي يعود لرجل كبير في السِّن يُسمَّى الحاج طعمة. كانت الأمور تسير على ما يُرام لسنوات، حتَّى نشبت خلافات بينه وبين صاحب مكتب مجاور، انتهت بمشاجرة عنيفة أسفرت عن دخول سليم السِّجن بسبب ضربه لذلك الرَّجل على رأسه باستخدام عصا خشبيَّة.

قرَّر الحاج طعمة حينها دفع تعويض لصاحب المكتب المجاور، ودفع تكاليف علاجه حتَّى يتنازل عن الدَّعوة المقدَّمة لدى الشُّرطة، وبعد خروجه اشترط عليه أن يكون عمله داخل المقبرة مع أمير، مقتصراً على دفن الأموات.

في البداية واجه صعوبة في التَّأقلم مع هذا العمل، لكن بمساعدة أمير تجاوز ذلك.

سمع صفيراً ناعماً قادماً من جهة باب الغرفة الَّتي يجلس خلفها، وأدرك أنَّ صديقه قد خرج، فألقى عقب سيجارته واستند براحة يده على المجرفة، ثمَّ لحقه.

كان أمير يسير بخطوات هادئة، بينما سليم خطواته متعثِّرة مسرعة، مثرثراً كعادته، لا يملُّ من الكلام.

(أمير، اتَّصل بي الحاج طعمة، وبلَّغني أنَّ الجنازة ستصل السَّاعة العاشرة، والآن أصبحت السَّاعة التَّاسعة؛ بقيت ساعة واحدة).

أسكن أمير صفيره، وبصعوبة أشعل سيجارته. حاول جاهداً أن يجعل ظهره درعاً ضد هذه الزَّوابع الحارَّة الَّتي تعصف بالهدوء، ثمَّ واصل خطواته الهادئة على الطُّرق الملتوية بين القبور، ورمق سليماً بنظرة جانبيَّة من عينيه البنِّيَّتين، وقال بصوت هادئ:

ـ أيقظني هكذا مرَّة أخرى، وستعلم ما أفعله بك!

ـ لم يكن لي أيُّ خيار؛ الحاج طعمة اتَّصل بي منذ ثلاث ساعات، وأخبرته أنَّنا بدأنا الحفر.

ردَّ أمير بلسان ملتوٍ بالسُّخرية:

ـ أوه. وأنت الآن تشعر بتأنيب الضَّمير؛ لأنَّك كذبت على ذلك العجوز؟

ـ لا، لا، مطلقاً.

نفث دخان سيجارته وأكملا السَّير نحو المكان، حيث كلَّما كان سليم ينطق بمزيد من الكلمات كان أمير يقابله برفع حاجبيه وهزِّ رأسه، متظاهراً بأنَّه يصغي، لكنَّه كان يسمع دون أن يستمع.

وصل الثُّنائي إلى طرف الطَّريق الممهَّد، ثمَّ انخرطا في الدُّروب المتعرِّجة بين القبور. سمعا ذلك الصَّوت الَّذي اعتادا على سماعه، صوت صادر عن طرق شيء ما، كان يشبه الدَّقَّات الثَّقيلة لمطرقة على قطعة حديد.

قال أمير، وهو غير مهتم بثرثرة سليم: (تلك العجوز مرَّة أخرى، رغم أنِّي حذَّرتها أكثر من مرَّة).

وقفا للحظة، يحاولان رصد مصدر الصَّوت، ثمَّ أكملا سيرهما دون نتيجة. وحينما وصلا المكان المحدَّد، قاما بحفره بالتَّناوب.

مرَّت ساعة ونصف، حيث تأخَّرت الجنازة عنهما، وهو أمر قد اعتادا عليه من الحاج طعمة. انتظرا بصمت، ملتفتين نحو الأفق، وأشعَّة الشَّمس الحارقة تلامس رأسيهما. عاد أمير إلى الغرفة لإحضار ماء الرَّش وحجر صنع يدويّاً من الطِّين يطلقون عليه (اللِّبن)، وفي أثناء ذلك سمعا صوت الحصى وهو يُسحق بإطارات السَّيَّارة، فنهضا من مكانهما. ظهر الحاج طعمة ووراءه أربعة رجال يحملون على أكتافهم التَّابوت الخشبي القديم الَّذي يعرفه الجميع، يرتدون السَّواد ويلفّون على وجوههم الغترات، ولم تبرز سوى عيونهم الحمراء المنهكة. تقدَّموا نحوهما بخطوات ثقيلة، بدأ أحدهم بالبكاء، ذلك البكاء الَّذي يبدأ بأنين ولا ينتهي.

كان صاحب المدفن وعمّاله معتادين على ذلك، حتَّى أمير وسليم، الشَّباب الَّذين يتَّسمون بالفظاظة واللَّا مبالاة، في بعض الأحيان

يتركون تلك الصِّفات جانباً ويمثِّلون التَّأثُّر الَّذي يظهرونه على قسمات وجوههم.

دخل أمير الحفرة، لكنَّ الحاج طعمة بحركة من يده أمره بالخروج منها، ثمَّ بصوته الجهوري أخبرهُ بأنَّها امرأة. استند بيديه على الأرض، وبحركة تدلُّ على رشاقة جسمه، خرج من تلك الحفرة.

تكفَّل الحاج بالأدعية المطلوبة قبل الدَّفن، وعندما انتهى من آخر جملة من دعائه الرَّقيق، نظر بعينين مليئتين بالتَّأثُّر إلى الأشخاص الأربعة المحيطين به أثناء صمت اللَّحظة، اعتدل ووجَّه سؤالاً يتدلَّى منه الحِد: (أيُّ واحد منكم من محارمها؟ أريد شخصاً يخرجها من التَّابوت ويضعها في اللَّحد).

كان الأربعة ينظرون إلى بعضهم البعض بعيون ملتصقة بالألم والحسرة، كل واحد منهم يبحث في روحه عن القوَّة ليكون الرَّافع الأخير لتلك الرُّوح الرَّاحلة.

رفع الشَّخص الَّذي كان يبكي كفّه، وقال: (أنا ابنها)، وأراد أن يقف، لكنَّ شخصاً من بينهم قال له ـ بعد أن رأى نحيبه قد علا وكاد أن يتحوَّل إلى صراخ ـ: (أنت فقط ساعدني، أنا سوف أضعها في قبرها).

فسأله الحاج طعمة: (وماذا تكون منها؟).

ردَّ عليه بصوت مبحوح وبعبرة خانقة: (أنا أخوها).

رفعوها من تابوتها الخشبي بتعليمات من الحاج طعمة، ووضعوها بجانبه. ثمَّ طلب منهم رفع أكفّهم وترديد الدُّعاء وراءه، وبعد أن أكمل

أمرهم برفع الجثَّة والاقتراب بها من الحفرة ووضعها على الأرض، ففعلوا ذلك. وطلب منهم مرَّة ثانية رفع أكفّهم وترديد دعاء آخر خلفه، كرَّر العمليَّة تلك ثلاث مرَّات، ومن ثمَّ أمرهم بكشف خدِّها الأيمن وإنزالها في لحدها على مهل وبتعليمات أشغلتهم عن نحيبهم وجعلت تركيزهم ينصبُّ في تطبيقها. بعد أن وضعوها في لحدها ازدادت أنّاتهم وبكاؤهم، لا سيَّما بعد أن نزل أمير إلى الحفرة لكي يضع غطاءً على الجثمان، قبل أن يسد اللَّحد بالحجر الطِّيني ثمَّ يدفن الحفرة العموديَّة، لكنَّ شخصاً من الأربعة أمره بالتَّوقُّف.

استدار له الجميع وراقبوا خطواته عندما اتَّجه إلى كيس أنزله من السَّيَّارة حينما كانوا مشغولين بالدُّعاء، كان كيساً أسود يشبه ذلك الَّذي يأخذهُ النَّاس من البقَّالة أثناء التَّسوُّق ليخفوا فيه احتياجات يومٍ عابر، وأخرج منه صندوقاً خشبيًّا بحجم الكفَّين مجتمعين، وأعطاه لأمير. لكنَّ الحاج طعمة أمره بالتَّريُّث، مستفهماً: (لحظة! هل هذا... هل هذا الصُّندوق فارغ أم بداخله...).

قبل أن يكمل الحاج سؤاله، أجابه الرَّجل:

ـ ذهب، نعم، إنَّهُ ذهب.

ـ لكن... لكن هذا لا يجوز، لا يجوز في شريعتنا.

ـ لا يهمّني.

ـ سيِّدي، لا يصحُّ دفن أيِّ شيء مع الميِّت، سوى غطاء عادي يوضع فوقه.

ـ قلت لك: لا يهمّني ما تقوله، ادفنه معها فقط.

اجتاحت نوبة سعال الحاج طعمة، وحينما وضع يده على صدره كأنَّه يهدِّئ تلك النَّوبة، قال له بصوت مختنق:

ـ سيِّدي، أنت تخالف الشَّريعة الإسلاميَّة!

بدأ غضب الرَّجل يتصاعد، حتَّى أنَّه فتح غترته الَّتي تلفُّ وجهه، كان يبدو أنّه يبلغ الخمسين من العمر، حليق الذّقن وبشارب أسود كالفحم، وكان أقل الأشخاص الَّذين حملوها تأثُّراً.

ـ هذا الصُّندوق كانت زوجتي تحبّهُ جدّاً، بداخله كل ما تملك من ذهب. ذات مرَّة كان هنالك خلاف بيننا لأنَّها ظنَّت أنِّي أريد بيعه، فأقسمت لها بأنِّي لن أمس منه شيئاً. والآن أريد أن يكون معها، أنا مُصِرٌّ على هذا.

ووضع سبَّابته وإبهامه على عينيه كأنَّه يريد البكاء، لكن الحاج طعمة قال له: (سيِّدي، هذا الشَّيء لا يجوز).

فصرخ الرَّجل بصوت هزَّ أركان المكان الهادئ وأفزع الجميع: (قلت لك: لا أهتم، ضعه فقط).

رفع الحاج كتفيه مستسلماً لقرار الرَّجل، وأمر أميراً بوضعه، حيث كان هو الآخر يستمع إلى نقاشهم بلا مبالاة، ويبدو عليه أنَّه يريد إنهاء المهمَّة بسرعة ليعود لفراشه، أمَّا سليم فكان ينظر إليهم باستغراب.

أغلق أمير الفتحة الأفقيَّة بحجارة الطِّين، ثمَّ رشَّ الماء عليها وخرج منها، وبدأ بدفن الحفرة العموديَّة وسط تزايد أنين أقارب المرأة المتوفَّاة.

وبعد أن رحل الجميع، ولم يبقَ سواه هو وسليم، قال له:

ـ اسمع، لم يبقَ إلَّا رش الماء، أنا سأذهب وأكمله أنت.

ـ لكنَّ هذهِ مهمَّتك!

ـ أعرف.

قالها وهو يزيل التّراب عن ثيابه، ويتكلَّم دون أن ينظر لسليم، وأكمل:

ـ أعرف... ربَّما سأقوم بمهامي كاملة حين تتعلَّم ألَّا توقظني بتلك الطَّريقة.

رحل أمير واختفى جسده بين القبور، وتعامدت الشَّمس وأرسلت أشعَّتها على الأحياء، أمَّا الأموات فكانوا أقلَّ ضرراً منها، بينما سليم لم يكن يحميه من تلك الأشعَّة سوى غترته الَّتي لفّها على رأسه بصورة عشوائيَّة، الهدوء المطلق يبعث داخله خوفاً مريباً، والصَّمت الَّذي يحكم المكان جعله يحس بشعور غريب. هدأت رياح السّموم، وأصبح الجو خانقاً، كان صوت الماء الَّذي يرشّه مسموعاً أثناء ملامسته التُّربة. بدأ ذلك الصَّمت يُربكهُ قليلاً، فتوقَّف وهو يمسح عرق جبينه الَّذي نزل على عينيه، وحينما أدار رأسه جفل وأسقط دورق الماء من يده؛ لمح في زاوية بصره امرأة عجوز تقف على مسافة منه تحدِّق بهِ، كانت عيناها مُثبَّتين عليه، مُبتسمة وكأنَّ أحداً قد رفع زوايا شفتيها على شكل بسمة تعاكس ملامحها الجامدة، يتسلَّل شعرها الأبيض مثل خيوط متشابكة من تحت شالها القديم المتَّسخ مثل اتِّساخ عباءتها الَّتي اختلط لونها

الأسود بلون أخضر، تحمل بيدها مدقَّة يدويَّة من الحديد مثل تلك الَّتي يستخدمونها في دقِّ وطحن الأشياء في المطابخ.

نفخ كأنَّه يريد أن يُخرج الفزع من صدره، وأغمض عينيه أثناء ذلك، ثمَّ قال: (يا إلهي، ماذا أفعل بتلك العجوز المجنونة الَّتي لا تفهم؟!).

ـ ماذا تريدين؟

لم تجب، واستمرَّت بالتَّحديق نحوه. فأعاد عليها السّؤال مجدَّداً. تحرَّكت نحوه، ثمَّ قالت:

ـ كنتُ مختبئة.

ـ منذ متى؟

ـ منذ أن جاء ذلك العجوز المقزِّز، طعمة.

ـ ألا تخافي أن يراكِ؟ لقد حذَّركِ منذ أسبوع، وأقسم بروح زوجته بأنَّه سيسحبكِ من شعركِ ويأخذكِ إلى الشُّرطة.

تقدَّمت غير مُبالية، وما زالت تلك الابتسامة الغريبة على فمها الَّذي يكاد يكون دون شفتين.

ـ لا عليك منه. أخبرني، هل ما زلت تريد أن تبقى هكذا، تحفر القبور وتدفن أيَّام عمرك مع الموتى؟

ـ انصرفي من هنا.

التقط دورق المياه الَّذي سُكب ماؤهُ بعد أن رماه، واتَّجه نحو العربة لكي يملأه من خزَّان صغير وُضع عليها. جلس بصعوبة على الأرض بسبب قدمه، وبدأ يسكب المياه بداخل الدَّورق.

ـ حسناً، سوف تبقى هنا لكي ترى أيَّامك تتساقط مثل هذا التُّراب الَّذي يسقط داخل الحفرة.

ـ قلت لكِ: انصرفي من هنا.

ـ سأنصرف، وستبقى تعاني من الفقر إلى الأبد.

ترك الدَّورق على الأرض ووقف مستنداً على العربة، وقد احمرَّ وجهه:

ـ وماذا تريدينني أن أعمل؟! ها! ماذا أعمل؟! هل أعمل معكِ في تلك القذارة والأعمال الخبيثة الَّتي لوَّثتِ بها المقبرة؟! هل يسمو بي هذا العمل نحو الغنى؟! حسنًا! لماذا لم ينتشلكِ من وضعكِ الحالي؟! حيث تبدين كأنَّكِ قطعة من روث حيوان. ألم تخجلي من نفسكِ؟! أنا وأمير في كلِّ يوم نجد بين القبور من تلك الأشياء الَّتي تصنعينها، أسماء لأشخاص تكتبينها بالقذارة على الأوراق، وألعاب أطفال قد ملأتيها بدبابيس ملوَّنة.

صكَّ أسنانه وتقدَّم نحوها يعرج، وقال لها:

ـ انصرفي من هنا.

ضحكت ضحكة عالية، ثمَّ استدارت لترحل، لكنَّها وقفت وكأنَّها تذكَّرت شيئاً:

ـ حسناً، سأرحل، لكن دعني أقول لك: إنَّ الله يبعث لنا الهدايا على شكل فرص، واليوم كانت فرصتك، لكن... حسناً، أنا راحلة.

رفع سليم حاجبيه متعجِّباً، قال ـ وكأنَّه يسأل نفسه ـ:

ـ فرصتي! ما هي فرصتي؟! توقَّفي، ماذا تعنين؟!

توقَّفت، وأدارت نصف وجهها له، ثمَّ ابتسمت تلك الابتسامة الخبيثة الَّتي لا تظهر فيها الأسنان، وقالت:

ـ صندوق الذَّهب! ذلك الصُّندوق قد ينقلك من دفن شبابك في هذه المقبرة إلى عالم تحلم به.

لم تكمل كلامها حتَّى استشاط سليم غضباً مرَّة أخرى، وأراد أن يتقدَّم نحوها، لكنَّه توقَّف واكتفى بالصُّراخ عليها، فانصرفت وهي تدقُّ بمطرقتها وتغنِّي أغنية هادئة غير مفهومة.

(٣)

السَّاعة تشير إلى السَّابعة والنِّصف في إحدى الشَّاشات الكبيرة المعلَّقة على جدران مطار النَّجف الدُّولي، كان أبو علي يجلس على أحد الكراسي في صالة الانتظار، وعيناه اللَّتان تختبئان خلف زجاج نظَّارته تتنقَّلان بين شاشات المعلومات في المطار وبين هاتفه. وبينما هو كذلك، أعلنت المكبِّرات المنتشرة في سقف المطار بصوت واضح عن وصول طائرة الخطوط الجوِّيَّة العراقيَّة القادمة من برلين.

بعد نصف ساعة بدأ تدفُّق القادمين من مختلف الجنسيَّات والأعراق، تداخلت أصواتهم المتباينة مع رنين الهواتف النَّقَّالة الَّتي وصلتها شبكة المحمول على الأرض، مع تنقُّل الحقائب على الأرضيَّة اللَّامعة الَّتي تعكس بريقاً فضِّيّاً على الوجوه المتعبة.

بينما كان أبو علي ينتظر، لَمَحَ وهو يتنقَّل بعينيه على وجوه المسافرين القادمين، امرأة شقراء الشَّعر تتحرَّك بثقة بين الحشود. رفع يده ملوِّحاً لها، وحينما رأته ابتسمت وعرف الإشارة الَّتي أطلقتها له.

حينما اقتربت منه حيَّته بابتسامة دافئة تحمل ذكريات ملوَّنة من ماضٍ رمادي، وهي تقول: (السَّلام عليكم، كيف الحال يا أبا علي؟).

كانت ابتسامتهُ العريضة تأخذ حيِّزاً من وجهه الَّذي بدأت آثار التَّجاعيد تأخذ أماكنها المعتادة فيه.

(وعليكم السَّلام. لم تنسي اللُّغة العربيَّة! كيف حالكِ، ميرين؟).

ما زالت تبتسم حين فتحت حقيبتها وأخرجت شالاً أبيض غطَّت بهِ جزءاً من شعرها، كأنَّها لم تنسَ احترامها لتلك المدينة. وقالت له:

(أنا بخير، بخير. ما زلت لا تقول اسمي بطريقة صحيحة).

أمسك بحقيبتها من مقبضها وسحبها، وانطلقا نحو سيَّارته الَّتي أوقفها في باب المطار.

جلست في المقعد الخلفي، وانطلقت السَّيَّارة نحو الفندق.

بدأت السَّيَّارة تجتاح الشَّوارع المألوفة، وكل شارع يتحدَّث لها بلغة الماضي، وهي في طريقها نحو الفندق الَّذي استأجرته مُسبقاً، والَّذي يقع في شارع الرَّوان كما أخبرت السَّائق أبا علي. عيناها تتجوَّلان خلف الزُّجاج، تبحث عن شيء مألوف في هذا العالم الجديد. المباني العالية، والمناظر الحضريَّة المتطوِّرة، كلّها تجلب لها ذكريات جديدة تندمج مع القديمة. الشَّوارع كانت قد تغيَّرت بالكامل، وتبدو الأماكن العامَّة أكثر حيويَّة ممَّا كانت تتذكَّره. النَّاس يمرّون بسرعة وعجلة، لكنَّها تستمتع بالنَّظر إلى ملامح وجوههم، تبحث عن تلك القطعة الصَّغيرة الَّتي قد تربطها بماضيها. أمَّا الأبنية الجديدة الَّتي نمت كالفطر، فقد حملت على جدرانها تلك الحداثة الملحوظة. بينما الأشجار المزهرة الَّتي تمتد على طول الطُّرقات، تشبه أذرعاً ترحِّب بالعائدين إليها. لم تكن هذه المدينة هي نفسها الَّتي خرجت منها قبل عقدين عندما كانت في ريعان شبابها، ولكنَّ الهواء كان يحمل نفس الرُّوح والرَّاحة القادمة من ذلك

المكان الَّذي أحبَّته عندما جاءت لكتابة أوَّل تقرير صحفي في مدينة النَّجف قبل عشرين عاماً.

حاولت إخفاء الحسرة الَّتي تسكنها، ثمَّ التفتت إلى مرآة السَّيَّارة حيث عينَي أبي علي تتوسَّطها، وبلغة عربيَّة غير جيِّدة تنطق فيها مخارج حروفها بلغتها الألمانيَّة، قالت: (عمّي أبا علي، هل طريقنا نحو الفندق سوف يأخذنا إلى ذلك المكان؟).

لاحت على مُحيَّاه ابتسامة عرفتها من خلال انعكاس عينيه على المرآة عندما انغلقتا للنّصف، كأنَّهُ كان يتوقَّع سؤالها.

(ما زلتِ تتذكَّرينه؟! نعم، سوف نمرُّ من هناك).

تنفَّست بعمق، ووضعت رأسها على نافذة السَّيَّارة الَّتي تسير إلى الأمام، بعكس ذكرياتها الَّتي تعود بها إلى الوراء كلَّما تقدَّمت العجلات.

في تلك الأثناء، لاحظ أبو علي شيئاً غريباً، سيَّارة سوداء كانت عند بوَّابة المطار انطلقت خلفه مباشرة، وعندما تقدَّم في شوارع المدينة ومنعطفاتها كانت السَّيَّارة تتبعه، حيث كان ينتقل بعينيه بين مرآة السَّيَّارة الوسطيَّة والطَّريق أمامه لكي يتأكَّد من شكوكه.

ـ آسف لتطفُّلي، لكنَّني لم أسألكِ عن مدَّة إقامتكِ هنا؟

ـ لقد جئت تحت غطاء التَّقرير الصّحفي حول مقبرة النَّجف، لكنَّك تعلم لِمَ أنا هنا. سأبقى أربعة أيَّام.

ـ حسنًا. إن شاء الله.

توقَّفت السَّيَّارة في تقاطعات شوارع النَّجف عدَّة مرَّات، وحينما

أكملت سيرها كانت مارلين تنظر إلى الأفق، وفجأة برزت أمامها قبَّة ذهبيَّة اللَّون، كأنَّها وردة فاخرة يحتضنها الرَّبيع تنمو بين بتلات الطِّين. كانت القبَّة تتلألأ بأشعَّة الشَّمس، مثل تاج يضيء السَّماء فوق أضلع المدينة، عندما ثبَّتت بصرها عليها وهي مبتسمة كأنَّها تتسامر بشعاع من نور خاص ينزلق في قلبها، جعلها تشعر كما لو أنَّها لامست الغيوم بأطراف أصابعها، تحوَّلت نافذة السَّيَّارة إلى إطار للوحة فنيَّة متحرِّكة، ممَّا جعلها تفتح هاتفها لتصوِّر.

كان أبو علي يتابع تلك المشاعر الَّتي جعلت وجهها يشرق، والَّتي جعلتها وكأنَّها طفلة صغيرة وجدت ما يسرّها.

أغلقت هاتفها عندما أصبحت القبَّة خلف المباني، تنهَّدت، ثمَّ قالت بنبرة هادئة: (إنَّ لون الذَّهب على القبَّة يمثِّل ثمن ذلك الشُّعور الأوَّل في اللَّحظة الأولى حين أراها).

(٤)

السَّاعة الثَّامنة من صباح اليوم التَّالي، وقفت الصّحفيَّة الألمانيَّة مارلين ستانكوف ذات السَّبع وأربعين سنة أمام نافذة غرفتها في الطَّابق الرَّابع، وهي تنتظر السَّائق، ذلك الرَّجل الَّذي تعرفه منذ عشرين عاماً. اتَّصل بها وأخبرها أنَّه في الأسفل، أزالت ستارة النَّافذة قليلاً لكي تعرف مكان توقُّفه، لاحظت أنَّ هناك سيَّارة تقف خلف سيَّارته، والغريب أنَّ من فيها كان ينظر إلى نافذتها بصورة مباشرة، لم تعطِ الأمر أهمِّيَّة، لكنَّها لم تتجاهله بصورة تامَّة. نزلت من غرفتها وعلى ظهرها حقيبة تضع فيها لوازمها الكتابيَّة، بينما أمسكت الحقيبة الخاصَّة بآلة التَّصوير في يدها. اتَّجهت نحو سيَّارة أبي علي، محاولة تجنُّب الأنظار القادمة نحوها من السَّيَّارة الأخرى. انطلقت مع أبي علي باتِّجاه مقبرة النَّجف، سارت السَّيَّارة مسافة طويلة بين شوارع المقبرة الضَّيِّقة وتعرُّجاتها، حتَّى وصلا إلى مكان لا تستطيع السَّيَّارة دخوله. أحسَّت برعشة غريبة اعترتها.

ـ هل هذا هو المكان؟

ـ نعم. لكن علينا أن نسير قليلاً.

نزلت من السَّيَّارة وهي تحمل آلة التَّصوير، تقدَّمت بخطوات حذرة، ورغم أنَّ الهواء كان يعانق وجهها بِرقَّة، لكنَّ أنفاسها تترنَّح بين الخوف والتَّوتُّر. عندما أغلق أبو علي باب سيَّارته، كادت تفلت

منها صرخة فزع، إلَّا أنَّ يدها راحت تحاصر فمها وكأنَّها تحاول إخماد صوت غير مرغوب. انتابها شعور غريب يلتفُّ حولها كالظَّلام، كانت القبور القديمة كأنَّها تستنزف النُّور من حولها، الصَّمت المحيط بدأ يتسلَّل إلى أعماقها، وعيناها تتجوَّلان في كلِّ مكان، تحاول استكشاف الأرواح الرَّاقدة تحت التُّراب. وبينما تتقدَّم، تترافق كل خطوة مع خفقات قلبها، وكل تكرار لصوت أقدامها يُدوِّي كأغنية مرعبة تعزفها ظلال وساوسها، تشعر كأنَّ القبور تتنصَّت إلى أنفاسها المتسارعة، رغم أنَّها سارت ببطء وكأنَّها تعتقد أنَّ الموتى هم أرواح نائمة فقط ولا تريد إيقاظهم.

كانت تسير خلف أبي علي مباشرةً، وهي تتجنَّب ملامسة جسدها لحجر القبور. رأت من بعيد ثلاث نساء ورجلاً مجتمعين عند قبر ما، وحينما مرَّت بقربهم وهي تسمع نياحهم وكلامهم أدركت أنَّ من بين تلك النِّساء والدة المتوفَّى. ابتعدت وأصبحوا وراءها، واختفت أصواتهم. ثمَّ مرَّة أخرى رأت شابّاً يقرأ القرآن ويجلس متَّكئاً على أحد القبور، مرّوا بجانبه وكأنَّهم غير موجودين من شدَّة تركيزه في القراءة. مرَّت ساعتان بين سير وتوقُّف، حيث أصبحت الشَّمس عموديَّة وأصبح الجوُّ خانقاً. نفدت قوارير الماء، وأصبحت تسمع أنفاس أبي علي المتقطِّعة.

ـ أبا علي، دعنا نعود، لا أعتقد أنَّنا سنجد شيئاً هذا اليوم. ربَّما غداً.

سمع أبو علي كلامها، ومن شدَّة إرهاقه لم يعترض ولم يتكلَّم، فقط رفع كفّه مُشيراً نحو طريق العودة.

بدأ العطش يؤثِّر على تركيزها، وكذلك التَّعب. قاومت بشدَّة رغبتها في الجلوس أو الاتِّكاء بيدها على القبور وهي تسير بينها، لكنَّها كانت مدركة تماماً أنَّ ما رأته ليس من تأثير شعاع الشَّمس؛ عجوز تجلس على الأرض، متكوِّرة تحتضن ركبتيها، وهي تنظر لها، اتَّسعت عينا مارلين للحظة، ولم تستطع من فزعها أن تنادي على أبي علي المنهك الَّذي يبتعد في مسيره شيئاً فشيئاً، في حين أنَّها لا تزال واقفة شاخصة تنظر لعيني تلك المرأة العجوز المبتسمة لها. ركضت الصّحفيَّة بفزع، لكنَّها تعثَّرت وسقطت على الأرض، الأمر الَّذي جعل أبا علي يعود لها سريعاً. كانت تبكي بفزع وهي ترتجف.

ـ ماذا جرى؟ هل تأذَّيتِ؟

ـ هناك، كانت هناك امرأة تنظر لي!

وقف أبو علي الَّذي بدأ يشعر بخوف حاول إخفاءه، تجوَّلت عيناه بين القبور، لكنَّه لم يجد شيئاً.

ـ لا يوجد أحد.

ـ هناك!

وأشارت بإصبعها المرتجف إلى مكانٍ خالٍ، فتفاجأت بعدم وجود أحد! حاولت أن توضِّح لهُ أنَّها لم تكن تتوهَّم، لكنَّها اكتفت بالسُّكوت. وقفت بصعوبة، ومن ثمَّ أكملا سيرهما نحو السَّيَّارة.

وفي طريق العودة إلى الفندق، ظهرت تلك السَّيَّارة خلفهما مرَّة أخرى، الأمر الَّذي جعل أبا علي يتأكَّد أنَّها ليست مجرَّد شكوك أو

مصادفة، ليخبرها أنَّ هنالك أشخاصاً يتتبَّعونها، وأنَّ مهمَّتها أصبحت أخطر، لكنَّها كانت لا تجيب، تنظر فقط نحو الشَّوارع الَّتي تجتازها السَّيَّارة دون الانتباه لتفاصيلها، فتفكيرها لا يزال هناك، في المقبرة.

وبينما كان أبو علي مشغولاً بالمناورة في الشَّوارع ليتخلَّص من السَّيَّارة الَّتي تتبعه، طلبت منه مارلين بصوت يشبه همساً ينادي للسُّبات: (أريد الذَّهاب إلى السِّجن).

كلماتها تسلَّلت إلى ذهن أبي علي مثل شظايا طائرة على جناح الرِّياح، تركته يتساءل في دهشة، كأنَّه يستفيق من حلم غامض، سألها بصوت يحمل تشكيكاً كبيراً كأنَّه يستجدي توضيحاً منها: (السِّجن؟! لماذا السِّجن؟!).

فأدركت أنَّها لم تصِغ جملتها بوضوح، ثمَّ عادت لتقول:

ـ أقصد أنَّني أريد الذَّهاب لزيارة أحد ما في السِّجن.

ـ أوه، لكن من لديكِ في السِّجن؟ يجب أن تعلمي أنَّ زيارات السُّجون لها مواعيد.

أشارت مارلين إلى هُويَّتها الصّحفيَّة بثقة:

ـ أملك هُويَّة الصَّحافة، يمكنني الزِّيارة!

ـ مع ذلك لا تستطيعين اليوم. بقي لكِ يومان هنا، سوف نذهب غداً؛ لأنَّني أعرف شخصاً هناك ربَّما يساعدنا، حسناً؟

أطرقت برأسها، ثمَّ أغمضت عينيها لوقت لم تحسَّ به، انقضى كثوانٍ معدودات حينما توقَّفت السَّيَّارة مقابل الفندق وصعدت مرهقة إلى غرفتها.

في صباح اليوم التَّالي، استيقظت مارلين وسط أطياف الظَّلام، تحمل على كاهلها أثقال اللَّيل الَّذي لم يمنحها راحة حقيقيَّة.

ليلة تقاطعت فيها لغة جسدها الَّذي تسلَّلته نزلات البرد، مع لغة الطَّبيعة في ليل صيف العراق، نحول غامض يلتفُّ حول جسدها، وارتعاش خفيٍّ يعصف بأطرافها، كلَّما حاولت الهروب من أنينها أيقظها طنين أذنها، فباءت كل محاولات النَّوم المتقطِّعة بالفشل، وفي إحداها وجدت نفسها واقفة على حافَّة عالم متناقض، حقل كبير يعكس تضاريس الحياة بشكل مدهش، نصفه يتنفَّس بربيع زاهٍ، يلهم بألوان الورود وعطر الياسمين، والنَّسيم يحمل أمواجاً من الحياة، بينما تقف حمامة على شجرة كالبتوس عالية في منتصفه، أمَّا النِّصف الآخر فهو خريف قاتم، يحمل أشواكاً يابسة تعزف ألحاناً كئيبة بسبب الرِّياح، ويقف غراب أسود ينعق بصورة مخيفة على أغصان شجرة ميتة في منتصفه.

تقدَّمت نحو حقل الرَّبيع بثقة، حيث اقتربت من شجرة الكالبتوس العملاقة، لكنَّ أقدامها توقَّفت عن الحركة، وحينما أنزلت رأسها لتعرف ما يعيقها، وجدت أنَّ الأزهار قد التفَّت حول قدمها وكأنَّها أفاعٍ سامَّة. انطلقت الحمامة البيضاء نحوها، وحينما اقتربت منها رأتها بعينين حمراوين ومنقار ملطَّخ بدم شيء كانت تأكله على الشَّجرة، أرادت أن تصرخ بعدما سقطت على الأرض لكنَّ الورود الَّتي قيَّدت جسدها قد غطَّت فمها كذلك. وحينما وقفت الحمامة على صدرها تريد أن تنهشه، اندفع الغراب من حقل الخريف نحوها، وطارت الحمامة عنها فحملها

بعد ذلك لتجد نفسها بين الأشواك الَّتي مسحت على جسدها بلطف، بينما يقف الغراب على تلك الشَّجرة الميتة وهو ينظر لها نظرة مطمئنة. رنَّ هاتفها ففزعت واستيقظت من الحلم الَّذي جعلها وكأنَّها سكبت الماء على جسدها ونامت.

لم تعرف الوقت إلَّا من خلال أبي علي الَّذي خلَّصها باتِّصاله من ذلك الكابوس، وبالرَّغم من مرضها لكنَّها أصرَّت أن تذهب إلى السِّجن المركزي في النَّجف.

حين وصلت، دخلت أروقة السِّجن بعد أن قضت نصف ساعة مرهقة في مكتب الضَّابط. كانت تسير بصعوبة، فهي تعرف جيِّداً أنَّها لم تعُد تلك الفتاة الشَّابَّة المفعمة بالحيويَّة. أزقَّة مظلمة ترسم تحوُّلات الحياة، وترفع جدراناً من الصَّمت تعكس حكايات الماضي، همس السَّجَّانين وصدى الأقفال يرافقانها في كلِّ خطوة.

كان أبو علي ينتظرها في غرفة الضَّابط عندما ذهبت مع الحارس لمرافقة السَّجين، بقي نصف ساعة حتَّى عادت، رغم أنَّ علامات النُّحول كانت واضحة على عينيها، إلَّا أنَّها كانت تحمل شيئاً من البهجة.

ـ أبا علي، يوم غد عند السَّاعة الخامسة عصراً ستقلع طائرتي إلى برلين، لكنَّني أريد قبلها الذَّهاب إلى المقبرة مرَّة أخيرة، وبعدها سوف نذهب مباشرة إلى المطار.

ـ حسناً، والآن أين نذهب؟

ـ إلى الفندق.

(٥)

في صباح اليوم التَّالي كان أمير مستلقياً على فراشه القديم، وهو يتصفَّح هاتفه حينما فُتِح الباب ودخل الحاج طعمة يحمل غضبه كعاصفة اجتاحت هدوء المكان، وكأنَّ الهواء حوله اندلع بلهب الغيظ، كان وجهه مُحمرّاً، وعيناه كفحم مشتعل.

(سمعت أنَّك وصلت حدود المقبرة يوم أمس، أين كنت تريد الذَّهاب؟!).

نهض أمير من فراشه بملامح باردة، رفع كتفيه دون اكتراث، وقال له: (أنت متوهِّم).

برودة الأعصاب الَّتي واجهه بها كانت مثل الزَّيت الَّذي صُبَّ على النَّار، اندفع نحو رفٍّ عليه كوب قهوة فارغ ورماه على الجدار، فتناثرت شظاياه في كلِّ مكان، وبدأ بالشَّتم حيث كانت الكلمات تندلع كلهب يحرق الهواء. شعر أمير بوزن تلك الكلمات الثَّقيلة يسقط على كتفيه، كما شعر أنَّ الغرفة الَّتي تعتبر مأوىً لهُ كانت تتنفَّس بصعوبة تحت وطأة حضور طعمة الغاضب.

شدَّ رباط حذائه وخرج من الغرفة، وهو يقول لنفسه متمتماً: (أتمنَّى أن أرى لذلك النَّتن قبراً بين هؤلاء).

سار وسط القبور، وكانت الرِّياح الحارَّة تتسلَّل بحنجرة المكان،

ترفع بخاراً من الأرض الرَّطبة، كأنَّما القبور تعيش وتتنفَّس في زفيرٍ متأجِّج. أشعل سيجارته ودفع دخانها بقوَّة ليتلاشى في الهواء بعيداً عن بشرته الحنطيَّة كألوان الجوز، وعينيه البنِّيَّتين اللَّتين تعكسان أسراراً حملها شابٌّ وسيم نشأ وكبر بين الأموات.

انطلق نحو سليم، الَّذي يعرف مكان تواجده في هذه الأوقات.

سليم كان يقوم بعمل إدامة لأحد القبور، بينما يدور حوله طه كعادته، كأستاذ يشرح لتلاميذه عن رؤى فلسفيَّة عميقة، كان يحرِّك يديه مع كلِّ جملة ينطق بها، كأنَّه يتكلَّم لغة الصُّم والبكم مع صوته الَّذي يبدو أنَّه أصاب سليماً بالصُّداع، رغم أنَّ سليماً ثرثار أيضاً، لكنَّ الثَّرثارين لا يحبّون بعضاً.

رمى عقب السِّيجارة بطريقة فظَّة على أحد القبور، وشابك يديه إلى الخلف، وأطلق صفيره المعتاد واتَّجه نحوهما، وحينما اقترب منهما قال لهُ طه: (مرحباً يا جندي، تأخَّرت اليوم عن التَّدريب). ثمَّ دار حول أمير وهو يتفحَّص وجهه ويقول: (ذقنك لم ينمُ بعد، عليك أن تحلقه كل يوم، أنا لا أسمح بذلك هنا، فقد كنت أخبر هذا الجندي ـ وأشار إلى سليم ـ لِمَ نريد أن تحلقوا ذقونكم).

لم يكترث له أمير؛ لأنه يعرف اختلال طه النَّفسي، والَّذي شخَّصه الطَّبيب بانفصام الشَّخصيَّة الحاد، لكنَّه لا ينكر حكمته وفلسفته أحياناً! بل يعتبره في أوقات معيَّنة الأب والمرشد الرّوحي له، ودائماً ما يصفه ـ رغم مرضه ـ بأنَّه النَّقاء الوحيد في هذا العالم.

اتَّكأ على أحد القبور، وقال له سليم:

ـ ما بك؟

ـ ذلك العجوز مرَّة أخرى.

ـ ماذا فعل؟

ـ يتَّهمني بأنِّي وصلت حدود المقبرة. حسناً، دعنا ننسى. قل لي: متى تنتهي من هذا القبر؟

ـ انتهيت، لكن لديَّ قبر آخر، فلنذهب سويَّة.

انطلقوا بين المسافات الضَّيِّقة، ينسلّون بين أضلع القبور. كان طه يسير أمامهم بثبات، بينما أمير كان شارد الذِّهن، يسير بصمت يشبه الصَّمت المحيط بهِ، أمَّا سليم فكان متأخِّراً عنهم لعدم قدرته على مواكبة سرعة خطاهم، والحقيقة أنَّه كان يفكِّر في أمر لم يكن يتوقَّع أن يفكِّر به يوماً.

وحينما وصلوا وجهتهم ووقفوا قرب قبر قديم أراد سليم أن يجدِّد طلاءه، لمح بطرف عينه شيئاً غريباً لم يرَه هنا سابقاً: امرأة تمسك بيدها دفتر ملاحظات، وقد علَّقت على ظهرها حقيبة سوداء، ويسير بمسافة عنها رجل كبير في السِّن يجاهد لمواكبتها في المسير، خصلات شعرها الأصفر الَّتي تتدلَّى كخيوط ذهبيَّة من أطراف شالها وعدم ارتدائها للسَّواد هو الشَّيء الَّذي أثار استغرابهم. اتَّجهت نحوهم بخطى حذرة، وهي تحمل أسراراً لا يستطيعون رؤيتها، إلَّا إذا اطَّلعوا على صفحات دفترها. وقف طه باستعداد كأنَّه يريد استقبال موكب جنائزي، اقتربت

منهم وكانت علامات الإرهاق والخوف بادية عليها، سلَّمت عليهم، فردّوا السَّلام بطريقة باردة، وحده أمير لم يتكلَّم وتصرَّف بفظاظته المعروفة، كان متَّكئاً على جدار قبر ينفث دخان سيجارته.

وبصوت خافت وكلمات عربيَّة جاهدت حتَّى تخرج بصورة صحيحة، قالت: (أنا الصّحفيَّة مارلين ستانكوف، جئت لعمل تقرير صحفي عن المقبرة، هل لي ببعض الأسئلة، لو سمحتم؟).

تقدَّم طه خطوتين، وقال بصوت هادئ يعبِّر عن الشَّخصيَّة الدَّخيلة الَّتي تأتيه بين حين وآخر: (أهلاً بكِ، أنا هنا حارس بوَّابة الموتى، الشَّخص الَّذي يستقبل أولئك الَّذين ينتقلون إلى عالمهم الأبدي. تفضَّلي، اطرحي الأسئلة).

وقف سليم وأزال التُّراب عن يديه، وأمر طه بالسُّكوت، ثمَّ تقدَّم نحوها وقال لها: (لا عليكِ منه. ماذا تريدين أن تسألي؟).

فتحت دفتر ملاحظاتها وقالت: (اسمحوا لي أن أسجِّل ما تقولونه، فأنا ملزمة بتقرير صحفي عن رحلتكم بين تفاصيل الدَّفن وحكايات الأرواح. هل صادفتم أشباحاً في عملكم؟).

أطلق أمير ضحكة من بعيد، حتَّى أنَّه اختنق بدخّان سيجارته، فسعل مرَّتين. على عكس سليم الَّذي نجح في كتم ضحكته.

رفع طه يده كأنَّه تلميذ يطلب الإذن للكلام، ودون أن يتلقَّاه، قال بصوت متباهٍ:

ـ أنا هنا حارس المقبرة.

ردَّت عليه مستغربة:

ـ حارس المقبرة؟! ممَّن تحرسها؟!

ـ أحرسها من الأشباح!

ثمَّ التفت إلى سليم وقال له: (ما هي الأشباح؟).

وبعدما تعالى الضَّحك بين القبور السَّاكنة، تقدَّم أبو علي من خلف مارلين وعلامات الانزعاج واضحة على وجهه، وقال: (عليكم احترام السَّيِّدة، فهي ضيفة هنا!).

شعروا بعدم تهذيبهم؛ لذا تدارك سليم الموقف وقال لهم: (اعذرونا. حسناً، سوف نجيبكِ عن كلِّ الأسئلة. لا يوجد هنا أشباح؛ هذهِ الأشياء تجدينها في القصص وليس في المقابر).

حاولت أن تفرض حضورها، فتقدَّمت خطوتين إلى الأمام، ثمَّ سألت: (لم أتعرَّف عليكم. هلَّا تخبروني بأسمائكم؟).

أراد سليم الكلام، لكنَّ طه سبقه: (أنا طه، حارس بوَّابة الموتى، وهذا مساعدي سليم الأعرج، وذلك الشَّاب هو أمير).

في لحظة هدوء متوهِّجة، ارتسم اسمه بين الكلمات بأثر مفاجئ. لم تكن تتوقَّع أن تسمع تلك الحروف الصَّامتة تتحوَّل إلى رنين في أذنيها. التفتت إلى أبي علي، ثمَّ عاودت النَّظر إليهم، وسألت طه بصوت مرتعش وهي تجاهد لإخفاء الارتعاشات من صوتها: (أمير من؟ أقصد أنِّي أريد أسماءكم الكاملة).

الهدوء الَّذي ساد اللَّحظات لم يكن إلَّا انتظاراً مشوِّقاً للأجوبة.

أجابها سليم: (لا عليكِ بهذا المختل. أنا سليم محمَّد. وهذا طه، هو كبيرنا، لا أحد يعرف اسمه الكامل، وجدته هكذا عندما أتيت إلى هنا، كثرت الإشاعات عنه وعن سبب بقائه في المقبرة، لكن الَّذي نعرفه أنَّه كان أستاذًا للفلسفة قبل أن...).

ثمَّ نقر بسبَّابته على دماغه مرَّتين في إشارة لاختلاله، وأكمل: (وذلك هو أمير، لا أحد يعرف عنه شيئاً كذلك، حتَّى هو لا يعرف عن نفسه أيَّ شيء، ليس لديه حتَّى أوراق رسميَّة وثبوتيَّة، يعيش مع الحاج طعمة صاحب مكتب الدَّفن الَّذي يعمل لديه، ذلك الرَّجل العجوز فرض على أمير قانوناً صارماً، وهو عدم تخطِّي حدود المقبرة، ولا أحد يعرف السَّبب).

صدمة خفيَّة اجتاحتها كموجة مفاجئة تسلَّلت إلى الشَّاطئ دون سابق إنذار. شعورها تغيّر في تلك اللَّحظة، كما لو أنَّها دخلت عالماً جديداً، عيناها تتَّسعان كحفرتين تسحبها نحو اللَّا مألوف، وقلبها يخفق بالتَّناغم مع نبضات اللَّحظة، كان كل شيء حولها يتلاشى، والوقت يبطئ كأنَّها داخل فقاعة زمنيَّة متجمِّدة، والذِّكريات القديمة أعادت نفسها بقوَّة إلى ذاكرتها، أمَّا الأسماء الضَّائعة في الأمس أصبحت حاضرة بكلِّ وضوح.

حاولت استعادة توازنها في هذا الفضاء السَّاكن بين الكلام والصَّمت، واندلع داخلها صراع بين الرَّغبة في البوح والخوف من الكشف. كانت الأفكار تتجوَّل كأشباح في عقلها، وكل واحدة منها

ترتدي قناعاً من الحيرة. اقتربت الجرأة من قلبها المُعتصر بشدَّة، وكانت الكلمات تلمس حافَّة الشَّفتين، جاهزة للهبوط إلى عالم الوعي، لكن حينما اقتربت من حافَّة الإفصاح، شعرت بعاصفة داخليَّة تجتاحها، حاولت كبت الكلمات، كمن يحاول إحباط تمرُّد داخله.

كان أبو علي بجانبها يلاحظ تلك التَّغيُّرات الَّتي أصابتها، وحينما رآها على حافَّة البوح، همس لها: (مارلين، توقَّفي، نحن مراقبون!).

وأشار لها بطرف عينه لتنظر إلى اليمين، حيث كان هناك شخصان يقفان قرب أحد القبور، وكانت نظراتهما تتَّجه نحوهم بصورة متقطِّعة، محاولين عدم جذب الانتباه.

وقفت متحيِّرة بين شوق وخوف، لكنَّها أوكلت الأمر لحكمتها الفطريَّة، متجنِّبة التَّفوُّه بكلمة تكشف سرّها.

حاولت أن تنظر إلى أمير وهي تسألهم، كأنَّ سؤالها موجَّه له وحده، لكنَّها لا تستطيع قوله بصيغة المفرد: (حسنًا يا شباب، هل يمكنكم أن تخبروني عن حياتكم؟ هل أنتم سعداء؟).

خاب ظنّها عندما جاء الجواب من سليم، بينما أمير يجلس على أحد القبور كمستمع لما يحدث أمامه.

ـ ماذا تعتقدين؟! ماذا ترين أمامكِ؟! شاب لا يستطيع السَّير بصورة طبيعيَّة، أعمل على حفر القبور، والدتي كبيرة في السِّن ولديَّ طفلان وزوجة يجب عليَّ رعايتهم، يبدأ عملي في الصَّباح وينتهي في المساء، وصاحب العمل رجل لا يعرف الرَّحمة، وأجرتي لا تكفي حتَّى لسدِّ حاجات عائلتي! والآن، ماذا تعتقدين؟! هل أنا سعيد؟!

كانت تستمع وهي تتظاهر بالكتابة، والحقيقة أنَّها ـ بدون إدراك ـ كانت ترسم دائرة متشابكة الخطوط، عشوائيَّة، تعبِّر عن توتُّرها. فعادت ووجَّهت السُّؤال مباشرة إلى أمير:

ـ وماذا عنك؟

ـ أنا سعيد.

ـ وهل تأكل أو تنام جيِّداً؟

ـ وهل هذا الشَّيء يهمُّ في تقريركِ الصّحفي؟!

ـ نعم، مهم.

ـ لا أعتقد ذلك.

حينما أرادت أن تسأله أكثر من ذلك، همس لها أبو علي مرَّة أخرى: (لا تبالغي؛ سينكشف الأمر. ولا تنسي، موعد الطَّائرة قريب).

أرخت كتفيها وتنهَّدت، ثمَّ أنزلت حقيبة ظهرها وفتحت سحاباً صغيراً لتُخرج منه مجموعة من بطاقات التَّعريف الشَّخصيَّة، وتقدَّمت نحوهم. أعطت واحدة لسليم والأخرى لطه، واقتربت من أمير وأعطته واحدة وهي تحاول أن تتفحَّص وجهه. يقف الزَّمن حينما تلتقي عيونها بعيونه، مشاعر ودٍّ مبهمة تتجلَّى في تلك اللَّحظة، والحقيقة تنام على أطراف الكلمات، جذَّابة وممنوعة كالسِّر الَّذي لا يمكن نطقه.

امتلأ قلبها بمزيج من الفرح والألم، حيث يسكن الحنين إلى أيَّام ضائعة وأمانٍ مكسورة. كأنَّها حملت عالماً مختلفاً في عينيها، عالماً اختفى وعاد فجأة.

يختبئ اللُّغز في عيونها، تسكب الدُّموع بصمت. وكلَّما حاولت أن تخفي الحقيقة، ازدادت الكلمات توتُّراً.

قالت لهم: (كل معلومات حسابات التَّواصل الاجتماعي هنا، في حال أحببتم التَّواصل معي. مع السَّلامة).

أدارت ظهرها وانطلقت، فتبعها أبو علي، وعندما رأى احمرار عينيها لم يكلِّمها.

(٦)

في صمت القبور وتحت سماء لا تُظهر سوى شحوباً، سيَّارة أبي علي تسلك طريق المقبرة الوعر متَّجهة نحو الطُّرق الخارجيَّة الَّتي تصل بهِ إلى مطار النَّجف. كانت مارلين تعلوها حالة من الرَّهبة المتنقِّلة، صخب المحرِّك يتلاشى أمام صخب الأفكار في ذهنها، ذلك اللِّقاء قد خلَّف أثراً ثقيلاً على روحها، حيث كانت الأحاديث ترسم خطوطاً مؤلمة على وجهها. يبدو أنَّ كل كلمة كانت وزناً آخر تضاف إلى حملها، وخيبات الحياة كانت تغلِّفها كغيمة مظلمة. وصلت السَّيَّارة بعدما اجتازت طرق المدينة إلى الطَّريق الرَّئيس المتَّجه للمطار، وفي طرف الشَّارع ظهرت سيَّارة سوداء متوقِّفة وكأنَّها ذئب ساكن ينتظر اللَّحظة المناسبة للانقضاض. حينما مرّوا بجانبهم واجتازوهم، تحرَّكت هي الأخرى وراءهم. لم تكن مارلين منتبهة، بينما لاحظ أبو علي ذلك وأدرك أنَّ هناك شيئاً قادماً. حافظ على سرعته وثباته، ولكنَّ السَّيَّارة أصبحت بجانبه، كأنَّها ظل من اللَّيل، ومن نافذتها أمره أحد الأشخاص بإشارة من يده بأن يتوقَّف. ارتجفت مارلين، وبقيت تنقل نظرها بينهم وبين أبي علي، وفي لحظة لم تكن تتوقَّعها تباطأت سرعة سيَّارتهم حتَّى توقَّفت على جانب الطَّريق، بينما توقَّفت السَّيَّارة الأخرى خلفهم، نزل منها شخصان واتَّجها بخطوات ثابتة نحوهم، تسارعت نبضات قلبها وكانت

الهمسات المرتجفة تخنقها من فمها، وبصوت مرتعش قالت لأبي علي: (ماذا يحصل؟ أبا علي، لِمَ توقَّفت؟).

لكنَّ أبا علي لم يجِبها، وكان ينظر لتقدُّمهم في مرآة سيَّارته، وكأنَّه يحمل عبئاً من القرارات الَّتي تدور في رأسه. لحظات من الصَّمت شكَّلت طوقاً يضيِّق حول أعناقهم.

عندما اقترب الشَّخصان بخطوات متسارعة نحو سيَّارته، أحسَّ بنبض اللَّحظة يتسارع في عروقه، ودفعته شدَّة الموقف إلى جرأة اتِّخاذ القرار. ضغط على دوَّاسة البنزين بقوَّة فاستجاب المحرِّك بصوت هائل، وصوت الإطارات ارتفع بصخب على الأسفلت، تاركاً وراءه سحابة من الغبار اختلطت بالدُّخان.

لم تتأخَّر السَّيَّارة السَّوداء عن الانضمام لهذا المضمار، حيث اندلعت مطاردة ملحميَّة في وضح النَّهار. كأنَّ الطُّرقات أصبحت حلبة مصارعة لسيَّارتين تتلاحمان في تحدٍّ خطير بين السُّرعة والمهارة. السَّيَّارة السَّوداء كظلٍّ مظلم يتبع النُّور الَّذي يفرُّ هارباً، تندفع خلفها بسرعة مذهلة، محاولة اللَّحاق بها مثل صيَّاد يتبع فريسته في ساحة مفتوحة.

في أثناء ذلك، لمح أبو علي إشارات السَّيطرة الواقعة في مدخل المطار، والَّتي بدت له واضحة في الأفق، الأمر الَّذي أدخل بصيصاً من الاطمئنان إلى قلبه، وكانت تلك اللَّحظة تعتبر له كفوزٍ كبير. وعندما وقف عند السَّيطرة، استدارت تلك السَّيَّارة من بعيد واختفت تماماً؛ شعر بالفخر يملأ صدره، وكأنَّه يتجاوز حدود المطار إلى عالم الأمان. أمَّا

مارلين، الَّتي كانت تحتضن حقيبة يدها بين ذراعيها وترتعش في الخلف، قد وصلت إلى برِّ الأمان، فنزلت بعد أن شكرت أبا علي كثيراً، ثمَّ وضعت لهُ النُّقود في المقعد الخلفي للسَّيَّارة بعدما رفض أخذ شيء، وذهبت وهي تجرُّ حقيبتها نحو بوَّابة المطار.

أمَّا من داخل السَّيَّارة الأخرى، فكانت الشَّتائم الَّتي تأتي عبر الهاتف تنهال على السَّائق ومن معه، لتصدر الأوامر من الشَّخص المسؤول عنهم من خلال سمّاعة الهاتف بأن ينتظروا سائق الصّحفيَّة الألمانيَّة عند عودته من المطار. وبعد انتظارهم لساعتين، هذا ما حصل، حيث نجحوا هذه المرَّة بما أُمِروا به؛ كانت نيَّتهم أن يأخذوا الصّحفيَّة، ولكنَّهم عادوا بسائقها بعد أن فقدوها، واقتادوه إلى مكان بعيد.

(٧)

في مساء ذلك اليوم، وبينما الظَّلام بدأ يسود سماء مقبرة وادي السَّلام، كان أمير يسير نحو غرفته ويتبعه طه وهو يحمل أدوات الحفر في نهاية اليوم لمساعدته. اتَّجها إلى غرفته، ووجدا سليماً يستعد لتشغيل درّاجته النَّاريَّة للذَّهاب إلى منزله، كانوا قد اعتادوا من سليم أنَّ صوته ومزاحه قبل الذَّهاب يكسر سكون المكان، ولكن هذه المرَّة، كان الهدوء يخترق روحه بطريقة غير مألوفة، حيث استبدل نغمات الثَّرثرة بصمت عميق. ألقى عليهما تحيَّة الوداع وانطلق بدرَّاجته الَّتي تلاشى صوتها المزعج تدريجيّاً، ليحل محلّه الصَّمت الَّذي اعتاداه أمير وطه حيث يعيشان. يسمح أمير لطه بالاستحمام في ملحق غرفته الصَّغيرة ويأكل معه، ثمَّ يرافقه نحو حدود المقبرة مع المدينة، حيث يسكن هو الآخر في غرفة صغيرة، لكنَّ أميراً لا يصل إلى حدود المقبرة بسبب الوعد الَّذي أعطاه للحاج طعمة. وبالرَّغم من أنَّ أميراً كانت تزعجه شخصيَّات طه المتبدِّلة في كلِّ حين، إلَّا أنَّه يعتبره الأب الرّوحي له، والَّذي يجد عنده جميع الأجوبة لتلك الأسئلة الَّتي تشغل عقله.

وعندما مرَّت السَّاعات، ذهب كلٌّ منهم إلى مكانه المعتاد، وتحت غطاء الظَّلام نامت الحياة في أحضان اللَّيل، واشترك الأحياء مع الأموات في رقود يختلف عن رقودهم الأبدي. كان سليم مسترخياً في

فراشه، يرسم بأفكاره خيوط الظَّلام على سقف غرفته، كما لو أنَّه كان يقرأ في تلك الظِّلال قصص حياته المتشابكة. بدأت أفكار مظلمة تتسلَّل بحذر إلى تفكيره، وكانت خيوط الشَّر تلتف حول قلبه المطمئن، وكأنَّها تناوره لتحيل مفاصل التَّفكير في اتِّجاه لم يكن يوماً في حساباته. ورغم جدِّيَّة تلك الأفكار، إلَّا أنَّ سليماً لم يستسلم لها بسهولة. بقي عقله مشغولاً بها، كمحاولة لفهم أصلها والتَّغلُّب عليها. وكل نجاح صغير في هذا السِّياق كان يشبه ضوءاً خافتاً يحاول إبعاد الظَّلام. يشغله الخوف من التَّفكير في فعل شيء لا يليق به، شعور بالإغراء يحاصره كما لو كان يغوص في بحر مُظلم. كان هذا التَّحوُّل يثير بداخله صراعاً غير مسبوق، فهو يعرف تماماً أنَّ هذا الاتِّجاه لا يساير أخلاقه السَّابقة، لكنَّه وجد نفسه محاصراً بأفكار مضطربة تتلاطم في أعماقه.

التفت نحو زوجته وطفليه وهم في عمق النَّوم الهادئ، وعلى ملامح أطفاله النِّيام تطفو البراءة، حتَّى في شهيقهم النَّاعم. أمَّا ملابسهم القديمة، جعلته يتحسَّر بأمنية تغيِّر واقع حاله لكي يحقِّق رغباتهم البسيطة. بدأت رياح الشَّر تلامس مشاعر سليم، الشَّاب الصَّالح، أحسَّ بوخزات الشَّياطين تنمو داخله، تستهويه نحو الجانب المُعتم من ذاته. كانت أفكاره الطَّيِّبة تتلاشى أمام إغراءات الشَّر، وبدأ يستمع إلى أصوات تحيله نحو الهاوية، الجانب الأسود تفوَّق بداخله، وأصبح يجد في نفسه الأجوبة لجميع تساؤلات الضَّمير، يرى الخطوات المظلمة كخيار واقعي، لكنَّه يجهل أنَّ أولى الخطوات نحو الهاوية تبدأ بخلق مُبرّرات للعمل السيئ!

في ذلك الفجر الرَّطب، عندما كانت أشعَّة الشَّمس تقترب من الشُّروق لكنَّ الظَّلام لا يزال يتدلّى مثل حُلمٍ ثقيل، انطلق سليم في رحلة مبكِّرة نحو مقبرة وادي السَّلام. همس رياح الشَّرق تشدو بين القبور، وكأنَّها تحذِّر من فعله الشَّنيع الَّذي عزم عليه. اتَّخذ طريقاً جانبيّاً للوصول إليها؛ حتَّى لا يسمع طه صوت محرِّك درّاجته، وحينما وصل أطفأها بعيداً عن غرفة أمير، ثمَّ سار نحو الغرفة وهو يعرج إلى أن وصل. أخذ العربة الَّتي تسير على عجلة واحدة وحمَّلها بالقليل من مواد البناء لكي يبدأ ببناء القبر المنشود، دفعها واتَّجه نحوه حيث لم يكن قد بُني بعد، ولهذا كانت مهمَّته الأساسيَّة هي أن يبنيه.

تنغلق العقول في تلك اللَّحظات اللَّا معقولة حينما نتَّخذ خيار اللَّا مبالاة، حين يعلو صوت النَّفس ويختفي صدى الضَّمير، تصبح السُّهولة في التَّصرُّف دون تفكير محاولة لتحقيق الرَّاحة الفوريَّة، دون أن يطارد النَّفس الومض الدَّائم لذلك الصَّدى الدَّاخلي الَّذي يلوِّح بأصابع الاتِّهام ويرجع بأصحابهِ إلى حكمة العقل.

تلمَّس التُّراب بيديه، لا يزال رطباً، ربَّما بمساعدة رطوبة الصَّباح. جلس على ركبتيه وبدأ يلمسه بسبَّابته، قلبه ينبض على وقع التَّساؤلات المتزايدة، وهو يعيش في تناقضات الإثم والطَّهارة. بينما ينخرط في خطَّته، تتحكَّم فيه تقلُّباته النَّفسيَّة. أدخل يديه في التُّراب، يغمرهما شعور غريب من الرُّطوبة، كأنَّه يستجيب للمساته بليونة، وأخذ ينبش في تراب القبر بكلِّ إصرار، ظلَّ السُّكون يُحاول التَّصدِّي له، ولكن رغم

ذلك كانت أصوات خفيَّة تناديه من بين أطياف عقله الباطن، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1]. صدى الآية يرنُّ في أذنيه كأنَّه صفعة تحاول أن توقظه من سكرة الجنون. هزَّ رأسه بقوَّة، ولكن صداها لا يزال يراوغه، كل كلمة تتسلَّل إلى عقله كومضات نار تحاول إشعال شرارة الضَّمير، لكنَّه كان قد فقد طُغيان الضَّمير واستعدَّ لشهوة اللَّحظة. قام بتمزيق ثوب العفاف بلا تردُّد، واستسلم لإغراءات اندفاعه، متناسياً قيمة النَّقاء الَّتي لا تُقاس بثمن الذَّهب. بدأ الحفر بمجرفته اليدويَّة وهو يتجاوز طبقات التُّراب، وحينما اقترب من هدفه، نزل إلى الحفرة حيث تحوَّل التُّراب الرَّطب إلى طين يصعب رفعه بالمجرفة، فبدأ يرفع الطِّين بيديه بسرعة؛ خوفاً من طه المختل الَّذي يدَّعي أنَّهُ حارس المقبرة، والَّذي يتجوَّل دائماً في هذه المناطق عند الصَّباح الباكر. لاحظ أنَّ هنالك دماء مع الطِّين الَّذي يأخذه من الحفرة، وحين عرف أنَّه من إصبعه الَّذي جُرح من كسرة زجاج قديمة مدفونة في الأرض، استخرجها ورماها بعيدًا ثمَّ أكمل الحفر بيديه العاريتين وإصبعه الدَّامي بدون توقُّف. أزال الجدار المصفوف من حجارة الطِّين، في البداية لفحته رائحة تفسُّخ كريهة، تراجع قليلاً، لكنَّه مدَّ يده داخل اللَّحد يتلمَّس الجثمان، وفجأة ارتطمت يده بشيء صلب، سحبه بقوَّة وأزال التُّراب عنه، عرفه دون أن يفتحه؛ لذلك خبَّأهُ في كيس أسود كبير أحضره معه. وقف، وبدأ يدفن الحفرة، وعندما انتهى بدأ ببناء القبر حولها، فالأمر أخذ منهُ وقتاً وجهداً.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٨.

وقف وهو يحتضن الصُّندوق واتَّجه نحو درَّاجته، ولم يعلم أنَّ ثوبه الأبيض قد تلطَّخ بالدَّم. خبَّأ الصُّندوق في درَّاجته وأراد أن ينطلق، لكنَّ أميراً أوقفه: (سليم! منذ متى وأنت هنا؟).

لفَّ الارتباك بيديه عنق سليم، وكأنَّ كلمات أمير كانت سهاماً تخترق الغموض الَّذي يكتنفه، لكنَّه حاول التَّظاهر بالهدوء التَّام: (لا شيء... جئت لبناء قبر).

أشعل أمير سيجارته ووقف بالقرب منه، ثمَّ قال له:

ـ الحاج طعمة اتَّصل بي، وأخبرني أنَّ هناك جنازتين، و... لحظة، هل هذه دماء؟!

ـ أين؟

ـ على ثوبك!

في تلك اللَّحظة، انكمشت روح سليم واستشاطت داخله رياح الرُّعب، وازداد وجهه بياضاً. ورغم جهوده للتَّمويه، إلَّا أنَّ همس الرِّيح حمل صوتاً كان كافياً ليخترق غطاء أسراره، ويكشف عن رهبته الخفيَّة. صوت طرق الحديد أتى من خلفهما، وحين التفتا وجدا تلك العجوز واقفة وهي مبتسمة. نفث أمير دخان سيجارته كغيمة نحو السَّماء، ثمَّ قال لها:

ـ ألم أحذِّركِ من التَّواجد هنا؟!

ـ لكنِّي جئت لأقول لك شيئاً مهمّاً.

ثمَّ نظرت إلى سليم نظرة ذات مقصد، الأمر الَّذي جعله يركب درَّاجته ويقوم بتشغيلها.

تجاهلها أمير والتفت إليه، وقال: (تمهَّل! إلى أين أنت ذاهب؟ لم تخبرني قصَّة هذا الدَّم؟).

فصاحت العجوز من مكانها، وهي مستمرَّة في طرقها:

ـ أنا أخبرك بقصَّته.

ـ لِمَ لا تذهبين من هنا يا خبيثة؟! لا تتدخَّلي.

ـ سليم اهدأ ودعها تتكلَّم!

صوَّبت نظرها نحو سليم، ثمَّ قالت: (أعتقد أنَّ هذا الأعرج قد خان الأمانة، أمانة الله وأمانتكم).

تحجَّر سليم، وجمود اللَّحظة خيَّم على الهواء، الكلمات الثَّقيلة تطأ أعصابه، والشَّك يرتسم على وجه أمير. امتلأ الفضاء بالتَّرقُّب، حيث كانت تلك اللَّحظة هشَّة كزجاج متصدِّع ينتظر أن يتشظَّى.

(ماذا تعني أخت الشَّيطان هذه بـ: خان أمانة الله وأمانتكم؟!).

سأل أمير وهو ينظر في عينَي سليم، ليكتشف أنَّ هناك شيئاً ما يلهب فكر سليم، حيث بدأ الصَّمت يتسلَّل بين الجُمَل ويعلن عن تحوُّل غامض، فأجابته العجوز بابتسامة خبيثة: (لقد جاء باكراً، أوقف درَّاجته حيث هي الآن، واتَّجه نحو ذلك القبر).

وفي هذه الأثناء عرف سليم أنَّ سرّه قد كُشِف وأنَّه كان مراقباً، فوضع يده على مقبض البنزين حتَّى ينطلق بدرَّاجته.

كان أمير ينظر للعجوز باستفهام:

ـ ماذا تقصدين؟ أيُّ قبر؟

ـ هذا الأعرج سرق الصُّندوق الَّذي دُفن في ذلك القبر.

ظهرت الصَّدمة على وجه أمير، شعر بالأرض تهتزُّ تحت قدميه، عيناه تتَّسعان وعقله يحاول تكذيب ما سمعه.

لكن، في لحظة فاصلة، ضغط سليم بقوَّة على دوَّاسة البنزين، وانطلقت الدَّرَّاجة بسرعة، تاركة أميراً يستنشق الهواء السَّاخن الَّذي يحسُّ فيه، حيث لم يستجب لصرخاته عندما نادى عليه وهو يأمره بالتَّوقُّف. قال بغضب، والدِّماء الحارَّة تجري في أوردته: (حين أجدك، سأقتلك يا سليم). التفت للعجوز ولم يرَها، فقد ابتعدت بعدما ابتهجت من الدَّاخل، تخلَّصت من سليم عبر إغرائِهِ بالذَّهب، وبقي أمير عقبة أمامها، هؤلاء الَّذين يخرِّبون كل أعمالها وشعوذتها، لكنَّها تعلم أنَّ أميراً ليس مثل رفيقه.

(٨)

في ذلك اليوم، خطى أمير خطوات مستعجلة نحو طه، ووجهه يعكس مشاعر الغضب والصَّدمة. كانت الأفكار تدور في رأسه حول فعل سليم، وكيف يمكن للصَّديق المقرَّب أن يقترف شيئاً كهذا؟! دخل أمير في حوار داخلي متوتِّر، يبحث عن تفسير وفهم لما جرى.

كان يتمنَّى أن يجد طه بوضع مناسب يسمح له بالحديث معه؛ لأنَّ أميراً يعرف طه جيِّدًا ويعرف تقلُّبات شخصيَّته منذ أن أتى إلى المقبرة، حينها كان أمير لا يزال ذلك المراهق ذا الثَّلاث عشرة سنة، وأمَّا طه فكان باحثاً وأستاذاً للفلسفة في جامعة المستنصريَّة في بغداد قبل مرضه. أثيرت الإشاعات بعد إصابته وتشخيصه بمرضه النَّفسي ومكوثه كل هذه السَّنوات في المقبرة، حيث يقال: إنَّه بعد أن فقد زوجته وابنته الوحيدة في حادث سير على طريق بغداد ـ أربيل، وكان هو النَّاجي الوحيد من ذلك الحادث، أثَّرت الصَّدمة على عقله ونقلته إلى حيث هو. لم يكن يوماً كباقي البشر بعد فقدانه لعائلته في ذلك الحادث، عانقه الحزن وألقى به في أحضان الفصام. مرضت شخصيَّته بألوان الهمِّ والشَّجن، ولكن مع ذلك، بقي عقله موطناً لفلسفته العميقة، وكانت الخيوط الفلسفيَّة الَّتي يحملها طه تظل متداولة في عقله حتَّى في أصعب اللَّحظات. كان يرى أنَّ المقبرة هي ملجأ للأرواح الهاربة من صخب الحياة، فظلَّ هناك مراقباً لعبور الأرواح والحياة المستمرَّة.

وصل إليه أمير ووجده يجلس هادئاً على حافَّة قبر، وجهه موجَّه نحو المدينة المزدهرة، وكأنَّه يحمل محادثة بعيدة مع الأرواح هناك.

جلس أمير بالقرب منه، ووجَّه نظره أيضاً نحو المدينة.

ـ سرق سليم أحد القبور.

ـ وماذا في القبور ليسرقه؟

ـ هنالك صندوق دُفِن مع أحد الموتى، رغم اعتراض الحاج طعمة على دفنه، لكن أهل المتوفَّى أصرّوا على دفنه معه.

رفع طه رأسه بتأنٍّ وكأنَّه يتأمَّل في أفق الأحداث، لم يكن هناك انفعال ظاهر على وجهه الهادئ، بل كان صمته ثقيلاً. ورغم جموده، إلَّا أنَّ هناك همساً بسيطاً ارتفع من شفتيه، كأنَّه جيش صغير من الأفكار ينشط:

(مسكين).

نظر له أمير بتعجُّب، وقال:

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت: (مسكين).

ـ كيف تجرؤ أن تقول: (مسكين) على لص خائن؟! آه يا سليم، يا عديم الشَّرف، سوف أجدك يوماً ما.

ـ أنا لا أتعاطف معه، بل قلت: (مسكين)؛ لأنَّ نفسه تغلَّبت عليه.

لم يفهم أمير شيئاً ممَّا قاله طه، فكلّ ما يعرفه أنَّ طه قد تناول الأدوية المهدِّئة الَّتي يشتريها له الحاج طعمة، ولهذا السَّبب هو هادئ اليوم.

وقف كأنَّه يستذكر أيَّامه في التَّدريس، وبدأ بشرح نظريَّته لأمير: (في لحظة الاختيار، يصبح الإنسان حَكَماً على نفسه، والضَّمير يصارع بين رغبات النَّفس وأصوات الفضيلة، فيما تظهر الفاصلة بين الصَّواب والخطأ، يتغلَّب البعض على ضميرهم ويسلكون دروباً مظلمة، فتنكسر أسوار الفضيلة أمام جبروت النَّفس. نعم، النَّفس تقودنا في طريقها بغموض، ولكنَّ الضَّمير يعكس ضوء الحقيقة. حينما نفقد السَّيطرة على الضَّمير، يظهر الانقلاب، وتصبح الأفعال قاسية وتتجاوز حدود الأخلاق. الإنسان في تلك اللَّحظة يختار ـ أحياناً بلا وعي ـ أن يتبنَّى مساراً خاطئاً، ويسمح لنفسه بالغرق في بحر الهوى والشَّهوات، ففي النِّهاية الضَّمير هو الضَّوء الَّذي ينير ظلمات النَّفس. ولكن عندما نُسكِت تلك الأصوات الدَّاخليَّة، يتلاشى الخط الفاصل بين الصَّواب والخطأ، ويبدأ الإنسان في رحلة خسارة الذَّات. هل فهمت؟).

وقف أمير هناك يحاول فهم ما قاله طه، لكن الكلمات تبدو كأنَّها تطير في الهواء دون أن يجد لها مكاناً في عقله. انعكست الحيرة على وجهه، وظلَّ يحدِّق في طه بفم نصف مفتوح، ثمَّ هزَّ رأسه ببطء في إشارة لعدم فهمه للتَّعقيدات الَّتي تختزنها كلمات طه.

عدَّل طه وقفته، وقال له: (اسمع، في تسارع الحياة وضجيج الوقت، يُضاعف الإنسان خطواته بحثاً عن أمانٍ ونجاح وسعادة، وفي طريقه يميل أحياناً إلى تجاهل نغمات الضَّمير. الضُّغوط اليوميَّة وإغراءات الحياة قد تجعله يعبث بخيوط الأخلاق ويتجاوز صوت الحكمة، وكأنَّه يتجاهل نداءً داخليّاً يحمل وزن الأخلاق والقيم).

تململ أمير في مكانه، وقال: (طه، أرجوك، كفى؛ لا أفهم شيئاً ممَّا تقول).

لكنَّ طه تجاهله وأكمل: (فالضَّمير، هذا الرَّفيق الَّذي يصدح في أعماق الوجدان، قد يتلاشى تحت ضغط الغرائز والمصالح الشَّخصيَّة، ينغمس الإنسان في عوالم الهموم والأماني، ينسى في تلك اللَّحظات الجنَّة والنَّار، ويُغيِّر أولويَّاته دون أن يعتني بصفاء ضميره، ولاحقاً قد يدرك الإنسان خسائر تجاوز ضميره، كما قد يبحث عن وسيلة للعودة إليه، لكنَّه يدرك أيضاً أنَّ تركه له قد يشكِّل رحيلاً عن النَّقاء الَّذي يرافقه في رحلته على وجه الأرض. ففي العديد من الآيات القرآنيَّة يُشدِّد على أهمِّيَّة ضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر والتَّقوى. على سبيل المثال، في سورة الشَّمس يقول الله: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾[٢]، يُظهر هذا النَّص أهمِّيَّة تقوى النَّفس وتحقيق النَّجاح من خلال تحقيق الطَّهارة. القرآن الكريم يتحدَّث بكثرة عن هذا الجانب الشِّرِّير في الإنسان، حيث يشدِّد على أنَّ النَّفس قد تكون أشد شرّاً من الشَّيطان نفسه. تتسلَّل هذه الجوانب الظَّلاميَّة في لحظات الضّعف والفوضى الدَّاخليَّة، حيث يكون الإنسان أقرب إلى نفسه من أيِّ شيء آخر، ويذكِّر الله الإنسان بضرورة التَّفكير العميق في نفسه والحذر من الانجرار إلى الشَّهوات والآفات الَّتي قد تثيرها النَّفس،

(٢) سورة شمس: الآيات ٧ـ ١٠.

فهي تحمل الخير والشَّر، والإنسان يحمل مسؤوليَّة اتِّخاذ القرار الصَّحيح والسَّيطرة على طاقاته الدَّاخليَّة).

ثمَّ نظر باتِّجاه المدينة، وقال: (في تلك اللَّحظة، قام سليم بإفراغ الفؤاد من الشَّرف واستبدله بصندوق الذَّهب، وفي هذا الاختيار المؤلم، ضاعف قيمة المعدن بين يديه، لكنَّه في الوقت نفسه فقد تلك القيمة الجوهريَّة الَّتي تكمن في النَّقاء والعفَّة).

أشعل أمير سيجارته ونظر من خلف دخانها إلى طه، وقال له ببلاهة: (لم أفهم شيئاً. إذن، أسليم سيئ أم لا؟).

اعتدل طه في وقفته، ورفع كتفيه وقال: (لا أعرف).

وفي أثناء ذلك، كان هناك شخصان غامضان يتابعان حركات طه وأمير من بعيد، ظلّا يترصَّدانهما وعيونهما تتبع كل حركة منهما. حاولا جاهدين أن يمثِّلا أنَّهما من زوَّار المقبرة حتَّى لا ينكشف أمرهما، وقفا أمام قبر لا يعرفانه محاولين أن يعرفا ماذا يدور بين طه وأمير، لكنَّهما لم يفلحا بسماع كامل الحديث، لكن عرفا اسميهما. وحين تحرَّك أمير وطه من مكانهما ورحلا، قام أحدهما بالاتِّصال بشخص يبدو أنَّه من أعطاهما التَّعليمات للمراقبة، فتح مكبِّر صوت هاتفه ليستمع صديقه الَّذي بقربه: (سيِّدي، المعلومات الَّتي لدينا صحيحة نوعًا ما).

فأجابهُ الشَّخص الآخر عبر الهاتف: (ممتاز. والآن، عودا بسرعة).

استجاب لهُ الشَّخصان على الفور، وانطلقا خارج المقبرة.

(٩)

في الشَّوارع المظلمة، سار أبو علي وهمس اللَّيل يرافق خطواته المتعثِّرة، بينما يكشف الضَّوء الخافت عن وجهه المنتفخ وعينيه المزرقَّتين وآثار الحبال على أطرافه. كلَّما صادف أحد المارَّة في الشَّارع يستجمع قواه ويحاول عدم لفت الانتباه، وعند الانفراد بنفسه يمسك ببطنه ويتعثَّر في مشيه. وصل إلى باب منزله الَّذي يعرف أنَّ القلق داخله يخنق بناته وزوجته. رنَّت الإشعارات الصَّوتيَّة بكثرة عندما اتَّصل هاتفه تلقائيّاً بشبكة إنترنت المنزل، أخرجه من جيبه ثمَّ بحث عن اسم مارلين ستانكوف، وأرسل لها رسالة صوتيَّة وهو يرتجف: (مارلين، لقد بحت بكلِّ شيء. أنا آسف، لم أستطع الصُّمود؛ لقد ضربوني).

ثمَّ صمت بسبب عبرة خنقته، وأكمل برسالة ثانية: (لا تقلقي، أنا بخير جسديّاً، لكنِّي لست بخير من الدَّاخل؛ لقد أخبرتهم بكلِّ شيء يا مارلين، لكنِّي مجبر، والله، إنِّي مجبر؛ لقد فكَّرت ببناتي وزوجتي. آسف، مارلين. آسف).

أغلق هاتفه واستجمع قواه، وطرق باب بيته.

في ذلك المساء تحديداً، كان هنالك اجتماع سرّي يرأسه طبيب الأعصاب ناصر محمَّد، مع مجموعة من الأشخاص عددهم أربعة، وكان اجتماعهم يدور حول استدراج أحد الشَّباب الَّذين يعيشون في مقبرة النَّجف إلى خارج المقبرة. كان الطَّبيب يتوقَّع سهولة الأمر، لكن

المعطيات الَّتي أخذت من السَّائق أبي علي تحت التَّعذيب كانت تشير لغير ذلك. أخذوا المعلومات منه بصعوبة بالغة في لحظات الظَّلام الكامل، حين طوَّقوه بأصفاد من حديد، فكان يقف في وسط الفضاء البارد، مثقل رأسه بالألم، ضوء خافت من مصباح قذر متعلِّق في سقف الغرفة كان يلقي بظلاله وضوئه على وجهه، كشهاب متوهِّج يتحرَّك في العتمة. كان الصَّمت يرعبه، وتمنَّى لو أنَّه يسمع شيئاً، حيث بدأوا معه في لحظات من سكون قاتل. قاموا بتعذيبه جسديّاً ونفسيّاً، استخدموا كل وسيلة ممكنة لاستخراج المعلومات من عمق ذاكرته المنهكة، فكانت الأوامر تتراقص على أوتار العنف. وسط حديث متقطِّع وتهديدات ملوَّثة بالدَّمويَّة، جاءت لحظة الفراغ الَّذي استولت على الغرفة، حيث وقفوا وترقَّبوا ردّ فعله، لكنَّ الصَّمت الَّذي اجتاح المكان لم يكن سوى انعكاس لصلابة روحه، رغم ألمه وإذلاله، بقي أبو علي صامداً. تسرَّبت أنفاسه بثقة، وعيناه المتورِّمتان تحملان قوَّة الاستمرار في الصُّمود، كما لو أنَّ جذور الشَّجاعة نمت في أعماقه، ورفض أن يخضع للرُّعب المفروض عليه رغم كبر سنّه. ولكن عندما وجَّهوا التَّهديد لعائلته، تغيَّر المشهد تماماً، غزت مشاعر اليأس والخوف قلبه، وكأنَّ أسوار صموده قد انهارت أمام تلك الكلمات، اهتزَّ عالمه الصَّامت، واستنزفت أحاسيسه حتَّى أعياه الخوف والحزن، فتسرَّبت الدُّموع بلا حجب، حينها انهار وسقطت أشلاؤه الذِّهنيَّة أمام همجيَّة العتاة، فألقى بكلمات اعترافه، فاضحاً لهم كل ما كانوا يسعون لاكتشافه.

كان وقتها الطَّبيب ناصر محمَّد هو من يدير جلسة الاعتراف تلك

بطريقة غير مباشرة، بواسطة أشخاص يجلسون معه الآن على هذه الطَّاولة الَّتي حوت اجتماعهم.

قال لهم ـ وهو يُنزل نظَّاراته ويضعها على الطَّاولة ـ: (ما هي اقتراحاتكم لاستدراج ذلك الشَّاب من المقبرة إلى خارجها؟).

ردَّ عليه شخص من بينهم، ويبدو أنَّه قائد المجموعة: (الأمر سهل، نوهمه بسؤالنا عن أحد القبور في طرف المقبرة، من ثمَّ نختطفه).

ابتسم الطَّبيب ابتسامة خبيثة، ثمَّ قال له: (حسنًا، لكن احذروا أن يراكم أحد. عليكم تنفيذ خطَّتكم غداً).

وفي أثناء ذلك، طُرق باب المكتب الَّذي كانوا يجتمعون به، فدخل السِّكرتير الخاص بالطَّبيب، والَّذي لا يتواجد دائماً سوى في الاجتماعات المهمَّة، حيث لا يحب الطَّبيب أن يقاطع اجتماعاته أحد، وقال له: (يقول الأستاذ عصام أنَّه يريد أن يُكلِّمك بموضوع لا يحتمل التَّأخير).

كان وجه الطَّبيب ناصر يعكس مشهداً من التَّناغم الفنِّي الهادئ، ولكن عندما وصل إليه الخبر، وجهه عبس وعيناه أظهرتا الاشمئزاز، كمن يتلقَّى نبأً غير مرغوب به. قوَّس شفتيه كأنَّه تذوَّق شيئاً مقزِّزاً، لكنَّه يعرف أنَّ الطَّعم المرَّ لا يقتصر على كونه مذاقاً لا يُحب. انكمشت ملامح وجهه كورقة مبلَّلة، كتعبير يشبه الرَّفض للحديث مع كائن لا يُحتمل.

قال للأشخاص الأربعة: (احذروا أن يعرف ذلك الأبله شيئاً. الآن انتهى الاجتماع، وغداً أريد أن أسمع أخباراً جيِّدة).

وفي مساء اليوم التَّالي، عندما كان أمير متوجِّهاً إلى طه، طرقت أصوات خفيَّة أذنيه، أشخاص تجمَّعوا حول قبر قديم ورفعوا أصواتهم لتبدو طبيعيَّة، يسألون عن مكان معيَّن في المقبرة. استقبلت أذناه الصَّوت وتوجَّه نحوه، وهو غافل عن المكائد الَّتي تنتظره. خرج من المنطقة الَّتي يجلس فيها مع طه كل ليلة، ومشى بخطوات حذرة ليجد أمامه ثلاثة أشخاص وهم يرفعون أصواتهم بحوار وهمي، وعندما رأوه ابتسموا وهم يختبئون خلف أقنعة اللَّطافة، وقالوا له:

ـ عذراً أخي، هل يمكنك مساعدتنا في البحث عن قبر فقدناه؟

ـ ما اسم المتوفَّى؟

ارتبكوا قليلاً، لكنَّ أحدهم تدارك الأمر وأعطاه اسماً قد قرأه عند دخوله بداية المقبرة. أغمض أمير عينيه قليلاً ليُركِّز، ثمَّ أجاب وهو يشير إلى الجهة المطلوبة:

ـ استمرّوا على هذا الطَّريق، ستجدونه في الزَّاوية هناك.

ـ نحن لا نقرأ. هل يمكنك مساعدتنا؟

ـ ثلاثتكم لا تقرأون؟

ـ نعم.

ـ حسناً، سوف آتي معكم.

صاح على طه بصوت مرتفع، فلم يردَّ عليه، فكرَّر نداءه مرَّتين حتَّى جاء طه من بعيد وقال له: (وضعت عشاءك في الكيس هناك. سوف أذهب معهم لطرف المقبرة لكي أدلّهم على أحد القبور وأعود).

اتَّجه طه نحو الكيس وهو يتحدَّث مع نفسه: (طرف المقبرة، حدود المقبرة، كيس عشاء، وقبر مفقود، وطعمة غاضب، طعمة غاضب، طعمة غاضب).

عندما سمع أمير اسم (طعمة) أوقف خطواته وعاد للوراء، استحضر في ذاكرته غضبه السَّابق عندما عرف أنَّه تجاوز حدود المقبرة.

حاول أن يدلّهم على المكان من خلال وصف دقيق، واعتذر منهم وعاد إلى طه: (الآن عرفت من يخبر طعمة بكل تحرُّكاتي! أنت جاسوس).

فتح طه كيس الطَّعام وردَّ عليه: (أنا حارس المقبرة).

عاد الأشخاص إلى الطَّبيب ناصر محمَّد يخبرونه بتفاصيل فشل خطّتهم الَّتي كادت أن تنجح.

في تلك اللَّحظة المظلمة، تعالت أصداء الإخفاق حول الطَّبيب، غمرته مشاعر الغضب في البداية، لكن سرعان ما ظهرت فكرة في عقله، كشيطان يهمس بأفكاره الخبيثة، تشكَّل غموض ابتسامة بدت وكأنَّها لغز لا يكشف عن أسراره إلَّا بتحليل عقلٍ ذي رؤية استراتيجيَّة مُمتلئ بالدَّهاء، فليس كل ابتسامة تنطوي على سرور، بل قد تكون بداية لدروب مظلمة تتَّخذ من التَّفكير الخبيث خيوطاً لها.

(أنا أعرف كيف أستدرجه).

(١٠)

الجوُّ حار جدّاً في ذلك النَّهار، حيث هناك جنازة قادمة، هذا ما قاله طعمة لأمير عندما اتَّصل به صباحاً، الأمر الَّذي جعل أميراً يعمل وحده وهو يشتم سليماً الَّذي ترك العمل بسبب فعلته القبيحة. لكنَّ أميراً توقَّف عن حفر القبر، والصَّوت الَّذي تصدره الأرض بسبب ارتطام مجرفته انقطع فجأة. كان الصَّباح يعانق المقبرة بأشعَّة الشَّمس، ولكن الهدوء الَّذي يليق بمثل هذا الوقت من اليوم تلاشى بسبب صرخة دوَّت في أرجاء المكان، لا تشبه صرخات النِّساء الَّتي اعتاد عليها هنا، بل كانت صرخات فزع واضحة. ترك مجرفته وركض باتِّجاه مصدر الصَّوت الَّذي لم يكن بعيداً، وحينما وصل وجد فتاة وقد ارتسمت على وجهها علامات الذُّعر، ترتعش يديها وهي تحاول استنشاق الهواء بصعوبة. صرخ أمير بوجهها:

ـ ماذا حصل؟

ـ هي تلاحقني... تلاحقني منذ أن دخلت إلى المقبرة.

ـ من هي؟

ـ امرأة كبيرة تلاحقني.

التفت أمير فلم يرَ شيئاً، فتمتم مع نفسه بغضب: (تلك القذرة المشعوذة).

أشعل سيجارته، وبعد أن نفث دخانها نظر إليها وقال:

ـ أنتِ تائهة؟

ـ لا، أنا فقط خائفة.

ـ هل أنتِ هنا لوحدكِ؟

بعد أن وقفت واستجمعت قواها، أجابته:

ـ نعم، جئت لزيارة قبر والدَي، لكن تلك المرأة كانت تقف بمسافة عنِّي، تبتسم وتطرق بمطرقة حديد، حاولت التَّكلُّم معها لكنَّها لم تتكلَّم معي.

ـ تلك المرأة نسمِّيها عجوز المقبرة. عجوز سيِّئة.

لم يكمل سيجارته، رماها على الأرض ثمَّ قال:

ـ حسناً، أنا ذاهب لإكمال عملي. اسلكي ذلك الطَّريق ثمَّ انعطفي يميناً وتقدَّمي بعدها، سوف تصلين إلى الشَّارع المُعبَّد، وهناك ستجدين سيَّارات الأجرة لتأخذكِ إلى المدينة.

استدار وأراد أن يمشي، لكنَّها استوقفته:

ـ أنا خائفة.

ـ وماذا تريدين منِّي؟ أخبرتكِ بطريق الخروج.

ـ حسناً، لو سمحت، هل لديك ماء؟ أنا عطشانة.

بقي أمير يتلفَّت في اتِّجاهات المقبرة بحثاً عن طه، لكنَّه لم يجده، فتنهَّد وقال لها: (سيري خلفي).

سارت خلفه وهي تحرِّك رجليها بسرعة في محاولة لمجاراته وخوفها

من السَّير بين الممرَّات الَّتي تتركها القبور المتجاورة، وهي تتكلَّم بنفس متقطِّع: (عندما دخلت، كانت تنظر لي، وعندما مشيت تبعتني. هل لك أن تتخيَّل؟! مشيت بسرعة، ولكنَّها تبعتني. قلت... قلت: سوف تتعب وتتركني، لكنَّها استمرَّت... نعم، استمرَّت. تلك المرأة مرعبة، كانت نظراتها مرعبة).

كان لا يُسمع من أمير سوى خطواته. وحينما استمرَّت بكلامها، قاطعها بعد أن وصل إلى الحفرة الَّتي كان يحفرها وبجانبها كيس يحتوي على علب ماء، فتناول واحدة وقال: (تفضَّلي).

شربت وعيناها تنظران إلى الحفرة، وعندما انتهت سألته:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أحفر.

ـ تعمل على دفن الموتى؟

ـ نعم.

ـ رائع!

ـ ما هو الرَّائع في هذا الأمر؟!

ـ عملك... عفواً، أنا أقصد أنَّك آخر من يرى ويلمس المتوفَّى، كأنَّك نقطة الختام في نهاية جملة حياته. أليس ذلك رائعاً؟ لو سمحت، هل لي أن أعرف رقم هاتفك؟ أنا أقوم بتأليف كتاب عن مدينة النَّجف، وعن علمائها وقبورها.

ـ ما قصَّة الكُتَّاب والصّحفيِّين هذهِ الأيَّام؟!

ـ ماذا؟! هل جاء كاتب قبلي؟!

ـ قبل أيَّام جاءت صحفيَّة ألمانيَّة لكتابة شيء ما يتعلَّق بالمقبرة.

أخرج هاتفه من جيبه وأعطاها رقم هاتفه، ثمَّ جرَّبت الاتِّصال به وسألته:

ـ ماذا أسمِّيه؟

ـ أمير.

ـ أمير ماذا؟

ـ أمير... أمير الدَّفَّان.

ـ أنا مريم. اكتب على رقم هاتفي (مريم الكاتبة)، أو (الكاتبة مريم)... حسناً، أنا أريد الذَّهاب، وعليك أن توصلني؛ أخاف من تلك العجوز، لو رأيتها تتخيَّل أنَّها خرجت من بين الأموات. عليك أن...

قاطع ثرثرتها بعد أن رمى مجرفته وصاح بصوت مرتفع: (طه. طه، أين أنت؟ طه!).

جاءه طه راكضاً، وكان حافي القدمين والتُّراب يغطِّيه.

قال: (طه، رافق هذه الفتاة إلى خارج المقبرة).

قالت، وهي تنظر إلى طه: (ومن هذا؟).

فأجابها على الفور: (أنا طه، حارس المقبرة، وهذا الرَّجل يعمل عندي). وأشار إلى أمير بسبَّابته.

ـ ومن أيّ شيء تحمي المقبرة؟

ـ أحميها من السَّرقة. قبل أيَّام سُرِق أحد القبور.

كان أمير مُستمرّاً في الحفر، وعندما ذكَّرهُ طه بفعل سليم ازدادت قوَّة مسكه للمجرفة وسرعة غرسها في التُّراب، كأنَّه يرى في الأرض جسد سليم. وأكمل طه: (وكذلك دوري هنا هو حماية هذا الهدوء والسَّلام، أي: أُبقي الاحترام والأمان للأرواح الَّتي تستظل في هذا الفضاء. أنا هنا لضمان أن يظل هذا المكان مأموناً ومحترماً، كما تستحق الأرواح الطَّيِّبة. أنا هنا...).

توقَّف أمير وعلامات الضَّجر بدت عليه: (طه، خذ الفتاة وارحل من هنا، لديَّ جنازة قادمة وأريد التَّركيز).

رفع طه كفّه بصمت وكأنَّه يعتذر، ومشى مع الفتاة الَّتي قالت: (ذلك الشَّاب فظٌّ ومغرور). وحينما ابتعدا عن أمير، قال لها: (اعذريه، اعتاد أمير على هذا الهدوء، عاش مُنصتاً لحديث التُّراب وانسجم مع الأرواح الَّتي ترقد تحته، لياليه تمضي وهو بين القبور، ونهاراته تمرُّ وهو ينغمس في خيوط السُّكون. كانت المقبرة له كمدرسة هادئة، حيث علَّمته القبور أسراراً كثيرة. نعم، هو يرتكب الأخطاء الَّتي تخصُّ الذَّوق العام، تصرُّفه بتلك الفظاظة طبيعيَّة في ظلِّ عدم تلقِّيه تربية محترمة وسط نشأته في هذه البيئة، لكنَّه كان يحترم تلك العلاقة الَّتي تربطه مع الله، لا يزال يمتلك الفطرة السَّليمة تجاه دينه. أنا أعرف ذلك الفتى جيِّداً).

وبسؤال ماكر أرادت أن تُطمئن قلبها بمعرفة من الَّذي تسير معه لوحدها، قالت له: (وأنت؟ ما هي علاقتك مع الله؟).

فتنهَّد وأجابها: (أنا، أنا قد مررت بين زحام الأيَّام، سعياً لتفادي

خطأ يعصف براحتي مع الله، عاشقاً للطَّهارة في روحي، وساعياً دائماً للسَّير على درب الصَّواب؛ ففي الإيمان تكمن عظمة الثِّقة، وإنَّ الاستماع لنور الإلهام أعظم من أن أكون الفصل في إدارة أموري، بينما يكون الله هو الرَّب المهيمن على الدُّروب والأقدار، أجد نفسي متوكِّلاً عليه بالكلمة الحكيمة واليقين الرَّاسخ، بنور إرادته يستبشر قلبي بالخير، وبتوجيهه تتشكَّل خطواتي نحو السَّعادة. لا شيء يشبه أن تكون أنت أداة تنفيذ إرادة الخالق، فبينما أطلب منه الرُّؤية، يفتح أمامي آفاقاً لا تُعدُّ ولا تُحصى. فأحمد الله على ثقتي بهِ، فهو يُخطِّط لي ما هو أعظم وأجمل ممَّا كنت أحلم به).

كانت نظرات مريم تُعبِّر عن دهشتها، كما لو أنَّ الحكمة تسكن في أقدار الأشياء المتواضعة، تسكن التَّساؤلات في زاوية عينيها، كيف يستطيع هذا الرَّجل الَّذي يمشي حافياً في ثياب متهالكة، أن ينطق بكلمات دافئة تتسلَّل إلى الرُّوح بسهولة؟ تكوَّنت ثورة من الاستفهامات في عقلها، تلك اللَّحظة الَّتي جعلتها تتساءل مع نفسها وتسأله: (ماذا تعمل؟ أقصد: هل لديك شهادة أو درست شيئاً ما؟).

لم يجِبها عن سؤالها، لكنَّهُ أشار إلى الطَّريق المعبَّد حيث كانت سيَّارتا أجرة تقفان على مسافة منهما، وقال لها: (مع السَّلامة).

(١١)

في ذلك المساء، حدث شيء غريب لأمير لم يكن يتوقَّعهُ، ففي أثناء جلوسه فوق أحد القبور كعادته وهو ينظر إلى القبَّة الذَّهبيَّة من بعيد، ذلك المكان الَّذي يحلم بزيارته يوماً، كان طه جالساً على الأرض يأكل من فاكهة أحضرها له هو، رنَّ هاتفه وارتسم التَّوتُّر على وجهه المتعب، وعندما لمح اسم الحاج طعمة على الشَّاشة، تغيَّرت ملامحه بسرعة، أنكرت الرَّاحة وجودها في عينيه. بتثاقل، رفع الهاتف إلى أذنه، وعيناه تنظران إلى القبَّة البعيدة، والصَّمت يخيِّم في الهواء. قال الحاج طعمة من الطَّرف الآخر للهاتف، بصوته المميَّز: (غداً ستذهب معي إلى دائرة الأحوال المدنيَّة، وبعد ذلك بأسبوع أو أكثر ستتوجَّه معي إلى دائرة الجوازات).

سكت أمير للحظة وهو يحاول استيعاب الخبر، ثمَّ ببطء، وكأنَّه ينطق الكلمة بعناية متناهية، أجاب: (حسنا)، وأغلق الهاتف. صمت لوهلة، واستدار لطه قائلاً: (هل لك أن تتخيَّل أنَّ ذلك العجوز يريد أن يأخذني لإصدار أوراق ثبوتيَّة؟!).

لحظة من الصَّمت تجلَّت في شروده ذهنيّاً، حتَّى قاطعه طه وهو يقضم تفَّاحته: (وما هي الأشياء الَّتي ستفعلها عندما تكون لديك هذه الأوراق؟).

نزل من القبر وهناك ابتسامة غريبة على شفتيه، وهو يشدُّ على قبضة يده: (سأبحث عن ذلك السَّارق، سليم).

لكنَّه حينما نظر إلى القبَّة مرَّة أخرى، أرخى قبضته وعينيه وهو ينظر إلى المكان الَّذي يحبّه، وقال: (لا، ليس ذلك ما يهمّني. ما يهمّني هو الذَّهاب لزيارة المكان الَّذي لطالما حلمت بزيارته).

في تلك الأثناء، رنَّ هاتفه الَّذي وضعه على القبر مرَّة أخرى، استدار له وهو يقول: (يبدو أنَّ ذلك العجوز المريض غيَّر رأيه).

لكن في شاشة الهاتف قرأ اسم (مريم الكاتبة)، نظر إلى طه وقال: (تلك الفتاة نفسها، ماذا تريد؟!).

فتح مكبِّر صوت الهاتف ووضعه على القبر.

ـ مرحباً، أمير.

ـ مرحباً.

ـ ربَّما الوقت غير مناسب، لكنَّني أريد القدوم غداً. حسناً، أنت تعرف أنَّني كاتبة، وأريد... أريد... حسناً... ربَّما الصُّدفة الَّتي حصلت من قدومي للمقبرة وزيارة قبر والدي والتَّعرُّف عليك، ربَّما هي مؤشِّر إيجابي لإنجاح الكتاب...

أمسك أمير جبينه كأنَّه يعاني من صداع، قاطع كلماتها وقال لها:

ـ حسناً، حسناً. تعالي.

ـ نعم. شكراً، أقصد: شكراً لأنَّك ستساعدني.

ـ سأكون موجوداً.

ـ شكراً لك، إلى اللِّقاء.

أغلق هاتفه وأراد أن يتَّجه نحو غرفته الَّتي تبعد مسافة قليلة عن

مكان طه، لكنَّه شاهد ثلاثة أشخاص يتهامسون بينهم، حاول المرور بجانبهم لكي يتأكَّد من شكوكه، وحينما اقترب تأكَّد أنَّهم نفس الأشخاص الَّذين أرادوا منه أن يذهب معهم إلى طرف المقبرة، لكنَّه استمرَّ في سيره دون أن يعطي أهمِّيَّة للأمر.

حاول الأشخاص الثَّلاثة الانسحاب من المكان حتَّى لا يكتشف أمرهم، محاولين الاتِّصال بالطَّبيب، لكنَّه رفض اتِّصالهم مرَّتين متتاليتين؛ لأنَّ عصاماً في مكتبه؛ ولا يريد أن يعرف أيَّ شيء عمَّا يخطِّط له، لكنَّه لا يريد خسارته في نفس الوقت. كان الطبيب يجلس خلف مكتبه ويجلس عصام أمامه، يحمل على وجهه ملامح الإحباط والحزن، طافت عيناه باتِّجاه الأرض، كأنَّه يحمل عبئاً ثقيلاً على قلبه.

(لم أعد أحتمل تصرُّفات وداد!)، قالها عصام بحزن، والخيبة تنعكس في عينيه.

رفع الطَّبيب حاجبيه مصطنعاً الدَّهشة، وقال:

ـ ماذا حدث؟

ـ تعاملني بلؤم، وكأنِّي لا أعني لها شيئاً، لا تعبير عن الامتنان، ولا احترام لمشاعري. أشعر أنِّي أصبحت مجرَّد وسيلة لإرضاء كبريائها!

رفع الطَّبيب كوب قهوته، وهو يقول بصوتٍ هادئ:

ـ الحب يحمل في طيَّاته أحياناً ألم الفهم والتَّفهُّم، لكن ماذا تتوقَّع من وداد؟ أنا أعرف ابنة أخي جيِّداً منذ أن تركها والدها ـ رحمه الله ـ عندي، أعرفها، إنَّها عنيدة لكنَّها طيِّبة.

تنهَّد عصام:

ـ أعلم... أعلم. لكنَّها تصعِّب عليَّ فهمها، ويزداد الأمر تعقيداً يوماً بعد يوم. أتمنَّى لو كان قلبها أكبر من كبريائها. أتمنَّى ذلك.

أجابه الطَّبيب وهو يظهر اهتماماً مُزيَّفاً بمشاعر عصام:

ـ لا تقلق. على كلِّ حال لقد اتَّصلت بها، وستأتي إلى المستشفى؛ لأنِّي أريد منها إكمال بعض التَّقارير، وسوف أتكلَّم معها. أنا أعرفها، ومتأكِّد من حبِّها لك، لا تقلق.

أجاب عصام بحزن:

ـ حسناً. أنا أستأذن. مع السَّلامة.

ثمَّ خرج من المكتب، وحين أراد أن ينزل السُّلَّم، رآها تدخل إلى المستشفى، وكعادتها كانت ترفع رأسها بكبرياء، ووجهها ينظر إلى الآخرين كمن يلتقط النَّظرات من المعجبين، الكعب العالي الَّذي يرتطم بالأرض يحدث صوتاً يعلو فوق صوت الأحذية الأخرى، كما لو كان يُخبر النَّاس بوجودها قبل أن يروها حين تتحرَّك بخطوات متكبِّرة، الغرور كان يتسلَّل إلى ملامحها، حيث كانت تتحدَّث بلغة العلو والاستفزاز. عندما مرَّت بين النَّاس وهي متَّجهة إلى موظَّفي الاستقبال، كانت تنظر إليهم وكأنَّها تنظر إلى العالم من أعلى الجبل، لا تبالي بمن حولها، لم تكن تتردَّد في استخدام لغة الجسد، حيث تدير رأسها بحركات متكبِّرة وتعتمد تعابير الوجه الَّتي تعكس الاستحقار، كما كانت كلماتها تحمل نبرة من التَّعالي. لا أحد ينكر جمالها، فهي فتاة يتسامى في حضرتها

الجمال المغري، كأنَّها زهرة تتلألأ وسط حديقة، ولكنَّها تحمل داخلها أشواكاً حادَّة، يرتسم جمالها كأنَّه فن، تستميل لنفسها وتستخدم ذلك الجمال بخبث متقن.

تتنقَّل بين مواقفها كممثِّلة على خشبة المسرح، إلَّا أنَّ كل حركة تخفي وراءها غموضاً وفخراً، كأنَّها ترى في عيون الآخرين انعكاس مرايا، فتستمتع بلقاء صورتها مع كلِّ نظرة.

صعدت السُّلَّم، وحين نظرت إلى عصام ابتسمت دون أن تظهر أسنانها. لكنَّ عصاماً، ابن المستثمر ومالك المستشفى، شاب يتَّصف بطيبة القلب، وهي الصِّفة الَّتي تعيبه كونها مبالغاً فيها. تسارعت دقَّات قلبه، ووضع يديه في جيب بنطاله العريض لكي يخفي ارتعاشهما.

ـ مرحباً، حبيبي.

ـ مرحباً. اتَّصلت بكِ عدَّة مرَّات، ولم تجيبي!

ـ كنت نائمة، حبيبي. سنتحدَّث لاحقاً؛ لأنَّ عمِّي ينتظرني.

مرَّت من جانبه وكأنَّها تخطَّت جماداً، لا تعترف بما يشعر به، ولا تدرك معنى أفعالها مع شخص يريد إرضاءها وسرورها. طرقت الباب ثمَّ دخلت وأغلقته وراءها.

كان الطَّبيب ناصر يقف أمام المغسلة يغسل كوب القهوة حينما دخلت، مسح يديه بمنديل واتَّجه نحو كرسيّه وهو يقول:

ـ قبل أن أتكلَّم في الموضوع الأكثر أهمِّيَّة، أريد أن أخبركِ أنَّ عصاماً كان هنا منذ قليل.

ـ نعم، لقد رأيته.

ـ ابنتي، عليكِ أن تتحمَّلي قليلاً، ألم نتَّفق على ذلك؟

ـ أنا لا أطيق ذلك المخلوق، ولا أعرف كيف سيصبح زوجي.

ـ وداد، قلت لكِ: عليكِ أن تتحمَّليه قليلاً. دعي كل شيء يسير حسب ما خُطِّط له. والآن، لا أريد أن يضيع الوقت في الكلام عن ذلك الأبله، ودعيني أخبركِ بالشَّيء الَّذي طلبت منكِ المجيء لأجله.

فتح صندوقاً صغيراً وأخرج منهُ ورقة، فتحها ببطء وقال: (هنا تبدأ حياتي، وهنا تنتهي).

وبدأ يتكلَّم معها ويرسم بقلمه خطوطاً على ورقة أخرى، كأنَّه يملي عليها خطَّة محكمة عليها تنفيذها بإتقان.

(١٢)

يستمتع أمير بسحب دخَّان السِّيجارة، ويبدو وكأنَّه يغرق في أفكاره، في حين يتحدَّث طه بحماس عن أشياء لا نهاية لها، في جوٍّ تمتزج فيه نسمات الهواء بالأشعَّة الشَّمسيَّة الدَّافئة في بداية الصَّباح. كان طه وأمير يتنقَّلان بين القبور في مهمَّتهما اليوميَّة لترميم أحدها، وفجأة، انتهت أجواء الهدوء برنين هاتف أمير. أوقف خطواته وسحب هاتفه ليرى اسم (مريم الكاتبة)، نظر إلى طه وفتح مكبِّر الصَّوت في الهاتف، حيث كانت هذه عادته في المكالمات الهاتفيَّة. بادرت مريم بالسَّلام بصوتها المفعم بالحيويَّة، وقالت له: (بعد نصف ساعة سأكون في بداية الشَّارع المؤدِّي إلى مكانكم. من فضلك هل تأتي إليَّ، أو يأتيني طه؟).

فأجابها، وهو ما زال ينظر إلى طه: (حسناً، إن شاء الله). ثمَّ أغلق هاتفه وقال، بعد أن تنهَّد: (يبدو أنَّ اليوم سيصبح طويلاً).

اتَّجه طه إلى طرف المقبرة، بينما اتَّجه أمير نحو أحد القبور وبدأ بترميمه وصبغه. مرَّت ساعة كاملة من الصَّمت المعتاد، والَّذي انقضى عندما سمع صوتاً بعيداً قادماً باتِّجاهه، ثمَّ أصبح قريباً منه.

حيَّته مريم بابتسامة، وكان وجهها أكثر إشراقاً. وقف ومسح يديه من الصّبغ بقطعة قماش، وردَّ تحيَّته الباردة.

ـ أتمنَّى ألَّا أزعجكم اليوم، لكنِّي حقّاً أريد إكمال كتابي؛ أريد معلومات كثيرة حول المقبرة، هل أنتم مستعدّون لأسئلتي؟

أجابها أمير، وهو يغسل يديه بقارورة مياه صغيرة:

ـ لحدِّ الآن لا يوجد أيُّ عمل، وربَّما اليوم بأكمله، من يعلم. حسناً، ماذا تريدين أن تعرفي؟

ـ أريد أن أتجوَّل وأسأل.

ـ كما تريدين!

تقدَّم طه ومريم الَّتي كانت تمشي وكأنَّ قدرتها على الحركة أقوى من ثقل الجاذبيَّة، بينما أمير يسير خلفهما واضعاً يديه في جيبَي بنطاله المتَّسخ.

وفي دائرة حديثهم، انغمس في الأسئلة والأجوبة، يستمع باندهاش إلى حياكة الحديث بينهما، كما لو كانا يخيطان خيوطاً ملوَّنة من الحكايات. تأمَّل في أفكار طه واستمع إلى تناغم كلامه، وكلَّما بدأت الأسئلة تكثر في مسامعه يستمتع أكثر في أجوبته.

حيث كانت تساؤلات مريم تنسجم مع حركة يديها، فترسم خطوطاً ودوائر في الهواء. رصد أمير كل تلك التَّفاصيل، ليندمج مع نشاطها وحيويَّتها، وشعر بشعور غريب يتسلَّل إلى روحه كلَّما ابتسمت وحرَّكت يديها.

ـ متى ينتهي عملكما؟ أقصد، ما هو الوقت الَّذي تذهبان به إلى بيتيكما؟

ابتسم أمير من خلفهما وهو يدخِّن سيجارته، مستمعاً إلى جواب طه الَّذي قال:

ـ هنا بيوتنا، ليس لدينا أحد.

ـ ليس لديكما أحد!

تراوحت نظراتها بين وجهيهما باستغراب، ثمَّ أكملت:

ـ ماذا تعني بأنَّ ليس لديكما أحد؟

زفر طه بحسرة، كأنَّه يحاول التَّخلُّص من العبء الَّذي يثقل كاهله، وقال لها:

ـ أنا هنا أجد السُّكون. لا أحد لي خارج هذا المكان.

ـ لا أحد لك! حسنا، لا داعي للكلام إذا كان يؤذيك.

ـ لا، لا. أنا لا تؤذيني الأشياء الَّتي أستطيع الحديث عنها، ما يؤذيني هو أنَّ هناك شعوراً لا أستطيع شرحه ولا أستطيع التَّعبير عنه، مثلاً أن يوقظك في منتصف اللَّيل حلم لأشخاص رحلوا، تحاصرك الذِّكريات من كلِّ جانب، تفشل بالتَّخلُّص منها، فتنام مرَّة أخرى، وفي الصَّباح تبدأ يومك بشكل طبيعي، لا أحد يعرف ماذا تذكَّرت ولا أحد يعرف ما مررت به.

أراد أمير أن يتدخَّل؛ لأنَّه يعرف الانفعالات النَّفسيَّة الَّتي تصيب طه حينما يتذكَّر حزنه، فقال له: (طه، بالمناسبة، لقد سألتني عن الأشياء الَّتي أفعلها عندما تصدر أوراقي الثُّبوتيَّة، من ضمن تلك الأشياء سوف نشتري الكتب معاً من مكتبات سوق الحويش).

أدار طه وجهه إلى أمير، وقال له بملامح هادئة: (لا تقلق، أنا بخير، فقد أصبحت أجد الرَّاحة في التَّعبير عن الأشياء الَّتي أستطيع التَّعبير عنها. أنا أعرف أنَّ مرضي قد أخذني إلى عوالم أخرى، ولكن

في هذه العزلة وجدت السّلوان، الأموات أصبحوا رفاقاً لي. اسألي يا ابنتي، اسألي).

كانت مريم، بوجهها الطّفولي، منتبهة لكلماته وكأنَّها تريد حفظها. قطعت انبهارها وسألته:

ـ كيف تقضي وقتك؟ هل لديك شيء تفعله؟

ـ نعم، لديَّ أشياء!

ـ ما هي؟

ـ حسناً، ربَّما يكون غريباً، لكنِّي مع كُل جثمان يأتي بهِ أهله هنا للدَّفن، أقوم بأخذ اسمه بعد بناء قبره وأكتبه في هاتفي وأبحث عنه في مواقع التَّواصل الاجتماعي.

قوَّست حاجبيها وسألته، وهي تنتظر الجواب بفم نصف مفتوح:

ـ ولِمْ؟

ـ لا أعرف، ربَّما فضول، ربَّما أريد معرفة كيف كان يعيش حياته، ربَّما لأشياء أخرى.

التفتت لأمير وسألته عن حياته، لكنَّه أجابها:

ـ لا أعلم، أنا وجدت نفسي هكذا، بدون أب وأمٍّ أو حتَّى قريب، وليس لديَّ أوراق تثبت وجودي.

لم يكن يملك إجابات فلسفيَّة مثل طه، لكنَّه يجيب عن أيِّ سؤال يوجَّه له منها، وكان يفضحه بريق عينيها عندما تسأله.

في ذلك اليوم الَّذي امتزجت فيه أصداء الحياة والموت، سافرت

أصوات الأسئلة والإجابات عبر أروقة القبور، انغمست مريم في دهشة الكلام.

(لِمَ أنت وحيد هنا بين القبور؟)، ذلك السُّؤال الَّذي لم يعرف إجابته أيٌّ منهم، لكنّه كان كفيلاً بأن يجعل أمير يسأل نفسه عدَّة مرَّات: (لِمَ أنا وحيد؟). بينما طه قد وجد أخيراً من يستمع إلى أحاديثه من الأحياء، لأنَّ أميراً صديقه الوحيد كان يضجر من الثَّرثرة، لهذا يستمر في سرد ما يحب إلى الأموات.

غادرت مريم المقبرة بخطى هادئة، وكأنَّها تترك وراءها أثراً جميلاً في قلوبهم. كان يومهم الجميل مع مريم ينساب بعيداً، تاركاً في قلب أمير إحساساً جديداً بالوحدة والفقد.

شعر لأوَّل مرَّة بأنَّ المقبرة الَّتي كانت ملاذ حياته، أصبحت موحشة والوحدة قد تسلَّلت إلى قلبه، وكأنَّ المكان الَّذي ألفه طوال حياته أصبح مريباً. شعر بذلك الشُّعور الغريب وهو يراقب رحيلها، حيث تسلَّلت إلى داخله مشاعر لم يعرف معناها.

وبعد ذلك اللِّقاء، كانت مريم تأتي يوماً بعد يوم إلى المقبرة، كتردُّد أطياف الحياة في المكان، حتَّى في أوقات انشغال أمير بواجباته، كان يُعتبر قدومها نسمةً منعشة، ممسكة دفتر ملاحظاتها وتكتب كل ما يقوله طه وأمير. استمرَّت في مجيئها خمسة أيَّام متتالية، حيث كان أمير يشعر بحيويَّة الوقت وجمال الشُّعور الَّذي يدخل إلى صدره رفقتها.

(١٣)

ارتفعت أصوات المشادَّة الكلاميَّة بين عصام ووداد كأمواج هائجة، والكلمات الغاضبة كانت تتداول بين الطَّرفين كسيف يتقاذف بين يديهما في غرفة الطَّبيب ناصر محمَّد الَّذي كانا ينتظرانه. تسارعت نبضات قلب عصام، وغضب هائج اشتعل في عينيه، كانت كلمات وداد اللَّا مبالية تدور مثل إعصار لتهزم الأمان الَّذي كان يحاول بناءه حول قلبه، تأبى النَّظر في عينيه، متجاهلة وجوده، ذلك الشَّاب الَّذي كان يتنقَّل بين شاطئين، حيث يلهث وراء حبٍّ افتقده في عينيها، ويراوغ عقله الَّذي يحذِّره من تلك العلاقة المسمومة، وينصت لعواطفه الَّتي تبرِّر له أفعالها، وجد نفسه غارقاً في بحر من الغضب والحيرة، ويتعامل مع جدار بارد من الغرور والاستهتار، محاولاً الوصول إلى قلب امرأة مغرورة تلوِّح بيدها من بعيد، وكأنَّها تقول: تعال وابحث عنِّي، ولكن لا تتوقَّع أن تجدني.

كانت تمضغ علكتها بلا مبالاة وهي تتنقَّل في أرجاء المكان على مهل كأنَّها عارضة أزياء. في تلك الأثناء دخل الطَّبيب، فانطلق نحوه عصام وقال له شاكياً:

ـ عمّي، ها هي أمامك، تعاملني كأنِّي أحد الأشياء الَّتي تقتنيها ثمَّ ترميها عندما تملُّ منها.

ردَّ عليه الطَّبيب وهو ينزع القفّازات الطبِّيّة الَّتي يرتديها:

ـ لا تستعجل في الحكم عليها، بُني، وداد تُحبّك، هي من تخبرني دائماً بذلك، أليس كذلك يا ابنتي؟

تغيَّرت تقاسيم وجهها من الغرور إلى البراءة، عقدت حاجبيها كأنَّها طفلة تدَّعي الظُّلم. تقدَّمت منهما وقالت بصوت ناعم:

ـ عصام يحكم عليَّ، ولا يعرف انشغالاتي، لا يعرف كم أحبّه، وإلَّا لما وافقت أن تقرأ سورة الفاتحة بيننا، لا يعرف أنِّي متحمِّسة للخطوبة الَّتي يريدها عاجلاً.

أخذ عصام نفساً عميقاً، وقال بصوت أشبه بالتَّوسُّل:

ـ إذن، لِمَ ترفضين الخطوبة؟

نظرت في عينيه، وحاولت إخفاء خبثها، وقالت له:

ـ أنا في هذا الوقت أعاني، أعاني من ذلك العمل الَّذي يرهقني، فقط أطلب منك بعض الوقت. لا تقلق، أعدك أنَّني سأحدِّد الموعد بوقت قريب.

توجَّه ببصره نحو الطَّبيب الَّذي أكَّد له كلامها بصوت أشبه بالهمس، وهو يغمز له بعينه:

ـ لا تقلق، قالت لك: لا تقلق.

وفي لحظة مؤقَّتة من الشُّعور الدَّافئ داخل صدره، قال مستسلماً:

ـ حسناً، كما تريدين. لكن... لكن لا تتأخَّري.

ثمَّ ودَّعهم وانصرف من الغرفة بخطوات هادئة متأنِّية، وهو غارق

تائه بين أفكاره. كانت مشاعره متناقضة، فرغم الإيمان بكلمات وداد، إلَّا أنَّ هناك شيئاً غامضاً يدفعه إلى التَّفكير والتَّأمُّل. نزل السُّلَّم دون إدراك حتَّى وصل إلى نهايته، وقبل أن تطأ قدمه الأرض تذكَّر أنَّه نسي هاتفه في المكتب، فاستدار وصعد السُّلَّم مرَّة أخرى، وما إن وصل رفع يده ليطرق الباب، لكنَّها بقيت معلَّقة في الهواء. لم تكن نيَّته أن يستمع لحوارهم الواضح، لكنَّه التقط كلمات غريبة أثارت فضوله وجعلته يتأنَّى في طرق الباب، وينصت لما يدور خلفه.

وقف مثل تمثال نُحت من الحجر، تملَّكه الصَّمت والدَّهشة، كانت الكلمات تنساب إليه كأنَّها سهام حادَّة، تخترق وجدانه بلا رحمة، عيناه فُتِحتا على مصراعيهما، كما لو كان يفتح الباب أمام عالم جديد غريب ومعقَّد، الوقت توقَّف، وكأنَّ الدَّم في عروقه قد تجمَّد. وفي تلك اللَّحظة العصيبة، أدرك مدى قذارة البشر وتعقيد العلاقات الَّتي يحاكيها القدر، فكم كانت الحقيقة صعبة، قذرة كواقع حزين يختبئ وراء قناع لسعادة وهميَّة، فهو لم يكن يتوقَّع أن يكون محوراً لخطط قد تكون خطيرة. وبينما كان يستمع، كان يفقد توازنه الدَّاخلي. (سنقوم بذلك معاً، سنضمن أن يكون كل شيء وفقاً للخطَّة. لا تقلقي، سيكون كل شيء تماماً كما خطَّطنا له).

وكلَّما سمع كلمة جديدة، زادت صدمته وقلقه. تشتَّت نظره وهو يوازن بين رغبة في معرفة الحقيقة وخوفه من مواجهتها. وفي تلك اللَّحظة، كأنَّ الهواء حوله تحوَّل إلى ثقل، وكل نبضة في قلبه أصبحت

تؤذيه. وأمام الباب الَّذي بدا أكبر من العادة، أغمض عصام عينيه للحظة، يحاول إخراج كل تلك الأفكار الملتبسة والعواطف المؤذية. استنشق الهواء بعمق، كأنَّه يحمل في صدره عبئاً ثقيلاً. ثمَّ، ببطء محسوب، طرق الباب. توقَّف الحوار للحظة، ثمَّ سمع كلمة (تفضَّل). فتح الباب على مهل وألقى نظرة ثاقبة إلى داخل الغرفة، حيث كانت وداد تجلس على الكرسي بطريقتها المعتادة. تغيَّرت ملامح وجهه، كل تلك النَّوافذ الكئيبة في وجهه أصبحت أكثر كآبة، والقوَّة الَّتي استعادها بداخله تتأرجح بخيوط عنكبوتيَّة. (لقد نسيت هاتفي)، قال بصوت ثابت، محاولاً إخفاء تأثير الصَّدمة والغضب اللَّذين اجتاحاه قبل لحظات.

(خذه، يا حبيبي)، تلك العبارة الَّتي قالتها وداد كانت من المفترض أن تجعله يهدأ، لكنَّه ازداد غضباً. رمقها بنظرة مسترخية الملامح، كأنَّه يقول لها: (تمتلكين قلباً كبيراً لدرجة أنَّكِ تخبِّئين فيه كتلة ضخمة من الخبث). أمسك هاتفه واستدار نحو الباب وهو يحمل شعور الاشمئزاز، حيث أدرك أنَّه لا يمكن للحب أن يعيش في بيئة ملوَّثة بالكذب والسّموم.

قال لهم: (وداعاً) ووجهه للباب، ثمَّ مرَّر يده على مقبضه وخرج وهو يحمل بداخله شعوراً غريباً يدفعهُ بإصرار لمعرفة الحقيقة كاملة، الأسماء الَّتي سمعها تحلِّق في رأسه، فتح هاتفه وكتبها: (مارلين، الحاج طعمة، الطَّبيب نديم الجفَّار). أكمل سيره ونزل السُّلَّم ببطء حتَّى خرج

من باب المستشفى، جلس في سيَّارته نصف ساعة مثبِّتاً بصره إلى الأمام وهو يحلِّل ما سمع، محاولاً أن يتجاوز تلك الصَّدمة الَّتي ألَّمت بهِ، معلّقاً بما كان وبما سوف يكون، لكنَّهُ قرَّر، وكان واثقاً من قراره.

(١٤)

جاءت مريم إلى المقبرة في ذلك اليوم بقلب متلهِّف وفؤاد يرتقب لحظة لقائها مع أمير، لكي تكمل مهمّتها الكتابيَّة عن مقبرة النَّجف وعلمائها. وقفت في المكان الَّذي تجده فيه كل يوم، لكنَّه لم يكن موجوداً، اجتاحها الارتباك، وكلَّما مرَّت الدَّقائق بلا أثر له وانقضى الوقت زادت حدَّة توتُّرها. ترتدي العباءة السَّوداء، معلِّقة حقيبتها على كتفها، بدأت تدور في فسحة وسط المكان تبحث بعينيها البنِّيَّتين عن الرَّجل الَّذي كان يضفي على المقبرة لمسة حيَّة، لكن كلّ خيوط الأمل الَّتي كانت تشدُّ على قلبها بدأت تتساقط بالتَّدريج. ظلَّت تتأمَّل في الطَّريق الَّذي يمكن أن يظهر فيه، ولكن لم ترَ أيَّ شخص يشبهه، ففي كل مرَّة يمرُّ شخص ترتفع قليلاً، ثمَّ تتحطَّم مجدَّداً عندما تكتشف أنَّه ليس هو. تنظر إلى هاتفها الَّذي بين يديها، تتأمَّل في الأرقام والصُّور، وفي ذهنها تساؤل: (أين هو؟ لِمَ لا يأتي؟ ليس من عادته أن يغلق هاتفه).

أحسَّت أنَّ الوقت يمرُّ ببطء، بينما أصوات الصَّرخات البعيدة لمن يرافقون الجنائز تندمج مع تلاوات القرآن الَّتي تنبعث من سمَّاعات صغيرة متناثرة على بعض القبور، صدى تلك التّلاوات ينساب بلطف في الهواء، يُمزج مع الرِّياح النَّقيَّة ويضرب على قلبها برفق. شعرت لأوَّل مرَّة بوحشة المكان، وأحسَّت بالقلق على أمير، ذلك القلق الَّذي هاجمها

فجأة، والَّذي جعلها تهزُّ رأسها وتقول بصوت مسموع: (عليكِ إكمال مهمَّتكِ. أنتِ هنا لإنهاء المهمَّة، تذكَّري هذا).

وبينما هي هكذا، سعل طه من خلفها، فاستدارت بخجل علَّ ذلك الرَّجل المريض لم يسمعها.

ـ مرحباً، أميرة.

ـ من هي أميرة؟

ـ أقصد سليمة.

ـ من سليمة؟! أنا مريم.

ـ آسف جدّاً. مرحباً مريم.

ـ أهلاً. أين أمير؟

تقدَّم باتِّجاهها، وعندما وصل بمحاذاتها قال لها:

ـ اليوم أمير خرج من المقبرة برفقة الحاج طعمة صاحب مكتب الدَّفن.

عقدت حاجبيها مستغربة، وأمالت رأسها مستفهمة:

ـ وماذا يفعل؟ هل سيعود؟

ـ نعم، نعم، سوف يعود. ذهب لإصدار أوراق ثبوتيَّة.

ـ نعم، أتذكَّر عندما سألته مرَّة وقال لي: إنَّه لا يملك أيَّ أوراق ثبوتيَّة. حسناً، إن كان كذلك، كيف يستطيع الخروج من المقبرة وممارسة حياته؟

سار طه بخطوات بطيئة، وتبعته مريم وهي تنتظر جوابه.

ـ أمير لا يعيش مثل باقي الشَّباب، دفن شبابه هنا بين الأموات.

ـ كيف ذلك؟ أقصد: لماذا؟

ـ لا أحد يعرف. الَّذي نعرفه فقط أنَّ الحاج طعمة المتسلِّط يمنعه من الخروج خارج أسوار المقبرة، ويهدِّده بتسليمه للشُّرطة إن فعل.

ـ ماذا فعل ليسلِّمه إلى الشُّرطة؟

ـ لم يفعل شيئاً غير أنَّه لا يمتلك هويَّة. وكذلك أخبرني ذات مرة أنَّه لا يريد المشاكل مع ذلك الرَّجل، فبالرَّغم من سوئه لكنَّه هو الَّذي يعتني بأمير، وكذلك بي، فأنا رجل كبير وأحتاج إلى الطَّعام والدَّواء، ذلك الدَّواء إن لم أتناوله يوميّاً تحصل لي أشياء غريبة لا أعرفها إلَّا من خلال أمير، يقصّها عليَّ في اليوم التَّالي ويروي لي ما فعلت.

ـ لكن، من حقِّ أمير أن يتحرَّر من تلك القيود!

ـ أخبرته، أخبرته كثيراً بأنَّه يجب أن يتحرَّر، وقلت له: إنَّ الحرِّيَّة ليست مجرَّد حق، بل هي حالة عقليَّة تتطلَّب شجاعة للتَّحرُّر من قيود الخوف، لكنَّه في كلِّ مرَّة يقول لي: إنَّه لا يريد أن يغضب ذلك العجوز الَّذي اعتنى به يوماً.

ـ وما هو السَّبب الَّذي يجعل العجوز يفعل هذا؟ ما هي غايته؟

تنهَّد طه، ثمَّ توقَّف عن السَّير، وقال:

ـ هل تعلمين يا مريم، إنَّ رأس البعض مثل مستشار غبي، يصدر أحكاماً سطحيَّة تنطلق كمياه آسنة، والأفضل أن يضعوه على كتفيهم كرفيق بلا كلام. لا أعرف ما هي غاية ذلك الرَّجل في منع الشَّاب من الخروج، لا أعرف.

مرَّت ساعة ونصف، وجدت مريم مكاناً لها قرب غرفة أمير تستظل بظلِّ أحد جدرانها، وطه كان يدور حولها كأنَّهُ تذكَّر أيَّامه في التَّدريس، وأخذ يطرح فلسفته بثرثرة أحبَّتها مريم. وبينما هما على ذلك الحال، جاء أمير من بعيد وعلامات السَّعادة تظهر على وجهه، رغم محاولته إخفاءها ببرود ملامحه. لم يكن أنيقاً كفاية، لعدم معرفته بالأناقة، لكنَّه كان مختلفاً عن كل يوم شاهدته به، يرتدي بنطالاً وقميصاً وساعة يد، ويصفِّف شعره كما تصفِّف الأم شعر ابنها في أوَّل يوم له في المدرسة. عيناه الواسعتان، وخصلات شعره البنِّيَّة المتماسكة على رأسه، وبشرته الحنطيَّة، كلّها حرَّكت ذلك الشُّعور مجدَّداً في قلب مريم، الَّتي ابتسمت ببلاهة من دون إدراك.

بعد التَّحيَّة، قال لهم: (اليوم أكملت جميع الأوراق، وفي الأسبوع القادم سأستلم ما ذهبت لأجله، لكنَّهم أعطوني ورقة إثبات لحين إصدار الهويَّة).

لم يُعِرْ طه اهتماماً للأمر، لكنَّ مريم وقفت واتَّجهت نحوه قائلة: (مبارك لك، هذا أمر جيِّد، ستستطيع ممارسة حياتك بعد ذلك).

أخرج من جيبه علبة السَّجائر، وأخرج إحداها وأشعلها ثمَّ نفث دخانها للأعلى، وبعد لحظة سكون رفع كتفيه وقال: (ربَّما).

وأكمل، بعد أن صمت قليلاً، ومشى فتبعته هي:

ـ سوف أخبركِ سرّاً صغيراً، لقد خرجت من المقبرة عدَّة مرَّات دون أن يعلم أحد، كنت أذهب لمكان أحبّه كثيراً، مكان أرتاح برؤيته عن قرب.

فسألته، وبداخلها استفهام كبير كشفته ملامحها:

ـ ما هو هذا المكان؟

ـ ستعرفينه يوماً!

سارا لمسافة دون كلام، لكنَّ مريم بادرت بكسر الصَّمت بطلب غريب لم يتوقَّعه أمير، قالت له:

ـ أنت متأنِّق اليوم، فما رأيك أن نذهب إلى مكان أحبّه أنا؟

نظر إليها مستفهماً عن المكان، فقالت له:

ـ هنالك مكان جميل وهادئ في المدينة، أحبُّ شرب القهوة فيه.

وقف أمامها بذلك الهدوء الَّذي اعتاد عليه، وسرعان ما تناثرت أفكاره كأوراق خريفيَّة في عقله، لم يكن يعرف كيف يردُّ، فقد رافق الأموات طوال عمره، ومشاعره الجديدة كانت كأنَّها أصوات أخرى بلغة لم يكن يجيدها.

وبينما كان يحاول أن يُسيطر على ارتباكه، استسلم لجاذبيَّتها..

ومع ابتسامة تأكيديَّة منه، انطلقا سويَّة نحو أفق جديد.

استأجرا سيَّارة من طرف المقبرة، ونزلا بأحد الشَّوارع المزدحمة النَّابضة بالحركة والصَّخب. وصلا إلى مقهى صغير، يتسلَّل إليه الضَّوء الدَّافئ من بين السَّتائر. اختارا زاوية هادئة، حيث يمكنهما مشاهدة الحياة دون أن يكونا جزءاً منها.

على تلك الطَّاولة انعكس خيط من أشعَّة الشَّمس، وعلى أصابعه الَّتي عانقت كوب القهوة وسيجارته، فسرحت ألسنة الدُّخان ببطء في

الهواء كأنَّها قصيدة هادئة. عيناهما تلتقيان بلغة خاصَّة، ولا يفصل بينهما سوى الكثير من المجهول وطاولة خشبيَّة.

(١٥)

رحلت مريم، وكانت تخنقه اللَّحظة الَّتي ترحل فيها كأنَّه يغطس في أعماق المحيط، وعندما تكتب له يشعر أنَّها تسحبه نحو الأعلى ليأخذ نفساً عميقاً يملأ بهِ رئتيه سعادة. لم يكن هناك تفسير واضح لهذه المشاعر، ولكنَّها كانت كفيلة بأن تحوِّل الهدوء العابر في حياته إلى مسرح، حيث يلعب فيه الشُّعور والتَّفكير دوراً أساسيّاً. كل لقاء مع مريم كان كمقدَّمة لفصل جديد، وكل نظرة كانت لحظة لسعادة جديدة تنمو في أعماقه.

خرج من المقهى وهو يمشي بخطوات هادئة، واضعاً يده في جيب بنطاله. دخل شوارع النَّجف تاركاً وراءه المقبرة الَّتي اعتاد عليها، تأمَّل جدران المباني، وشاهد النَّاس وهم يمرّون مبتسمين، غير أولئك الَّذين يطغى الحزن على وجوههم في مقبرة وادي السَّلام، أو تلك الوجوه الخاشعة الَّتي تصادفه بقرب الضَّريح المقدَّس عندما يسرق الوقت للذَّهاب خلسة إلى هناك. تحوَّلت الأزقَّة إلى ممرَّات تقوده إلى عوالم لم يكن يعلم بوجودها، وكل خطوة كانت مغامرة جديدة تتكشَّف أمامه.

فجأة، وهو يرى الأسراب من وجوه النَّاس المارّين أمامه، مرَّت صورة صديقه الخائن سليم في ذهنه كظلٍّ داكن، شعور الغضب سرعان ما اندلع في صدره، وكانت له القدرة على إشعال اللَّهب الدَّاخلي في صدر أمير. أمَّا الانتقام، فكان يلوح في أفق أفكاره، وهو يتمنَّى لو

يصادفه أمامه. كوَّر يده الَّتي أدخلها في جيب بنطاله، وتمتم بصوت منخفض، قائلاً: (ليتني أراك يا سليم، ليتني أراك).

وبينما هو يسير وحيداً متخبِّطاً في الشَّوارع، ودون أن يعلم، دخل في زقاق مظلم، وفجأة سمع صوت سيَّارة من الخلف، استدار ليجدها تسير ببطء ولم يرَ منها سوى ضوئها الأبيض. أخذ يسير على جانب الطَّريق، تاركاً لها مساحة للمرور بحرِّيَّة، لكنَّها توقَّفت بالقرب منه، ونزل منها أربعة أشخاص ملثَّمين وأغلقوا الطَّريق أمامه بسرعة، لمح بيد أحدهم مسدَّساً، وقبل أن يفهم ما يحدث وضعوا كيساً على رأسه ليحجبوا رؤيته، وحملوه نحو السيَّارة حيث أحسَّ بقسوة القبضات الَّتي تمسك به. لم يكن هناك مقاومة منه أو صراخ، بقي صامتاً والظَّلام يحيط به. لم يسمع سوى صوت باب السيَّارة وهو يغلق، وصوت المحرِّك وهي تنطلق. وبين صمتهم جميعاً، اتَّصل أحدهم بشخص آخر ليخبره بنجاح العمليَّة. سمع أمير جملته، حيث قال: (العمليَّة تمَّت بنجاح. هو معنا الآن، وسنأخذه إلى المكان المحدَّد).

ثمَّ أغلق الهاتف الَّذي كان على طرفه الآخر الطَّبيب ناصر محمَّد، الَّذي جاءته تلك المكالمة عندما كان يستعد للخروج من مكتبه متوجِّهاً إلى البيت، لكنَّه غيَّر وجهته نحو المكان الَّذي أخبروه أنَّهم سوف يتَّجهون إليه. أغلق باب مكتبه بارتباك، ثمَّ نزل مسرعاً. كان عصام يجلس في مكتبه المطلِّ على مكتب الطَّبيب في الطَّابق الثَّاني للمستشفى، ولاحظ الارتباك على الطَّبيب وهرولته حين خرج، وقف بهدوء وتقدَّم

نحو نافذة مكتبه الكبيرة والمطلَّة على الشَّارع، حيث رأى الطَّبيب يهرول نحو سيَّارته الَّتي انطلق بها مسرعاً. كانت عينا عصام تخفي الكثير من الغموض، ابتسم ابتسامة ماكرة، ثمَّ خرج من مكتبه مُلتفتاً في أرجاء المكان، وتقدَّم نحو مكتب الطَّبيب ناصر، كان يمتلك نسخة من مفتاح المكتب، أخذها من مجموعة المفاتيح الَّتي يمتلكها حارس البناية الَّذي لم يمتنع أو يشكُّ بشيء، باعتبار أنَّ عصاماً هو ابن المستثمر لهذهِ المستشفى. لم يجد صعوبة في فتح الباب، فدخل غرفة الطَّبيب ناصر بخطى خفيفة، كأنَّه يتجنَّب إصدار أيِّ صوت قد يفضح وجوده. أضواء الشَّارع الَّتي تتسرَّب من النَّافذة لم تكن كافية لتنير المحيط، ممَّا جعل الغرفة تبدو شبه مُظلمة؛ فتح مصباح هاتفه وامتدَّت يده الأخرى بحذر إلى أدراج المكتب، يشعر بخفقان قلبه يتزايد كلَّما مرَّ الوقت، فهو يسعى للعثور على أيِّ شيء يلقي الضَّوء على غموض الأحداث الَّتي استرق السَّمع عنها سابقاً. استقرَّت عينه على مكتب الطَّبيب، حيث بدأ يفحص الأدراج بحذر، وبينما كان يلتقط ورقاً قديماً ويراقب ما فيه، انتبه لشيء مميَّز، مغلَّف رسالة يظهر أحد زواياه من بين أوراق كتاب ضخم موضوع على المكتب.

في تلك اللَّحظة، تعاظم الفضول في نفسه، وقرَّر أن يسحبه. تحسَّس أطرافه وشعر أنَّه على وشك اكتشاف شيء يلقي الضَّوء على اللُّغز الَّذي يشغل تفكيره. جلس على أحد الكراسي وأمسك الورقة الَّتي أخرجها من ذلك المُغلَّف وهو يُقرِّب مصباح الهاتف عليها، ثمَّ

بدأ يقرأ. اخترقت كلمات الرِّسالة عقله، وفجأة انكشفت أمامه حقائق لم يكن يتوقَّعها. صدمة تتسلَّل إلى عمقه، ابتسامة عابرة تعلو شفتيه وهو يكتشف الحقيقة، مدركاً المفاجأة الكامنة في تلك الكلمات المكتوبة. بدأ يقرأ بتركيز أكبر، لكن فور وصول عينيه إلى آخر سطر، شعر برعشة بداخله. ثمَّة اندهاش في عينيه، وكأنَّه يحاول استيعاب معنى الرِّسالة. وفجأة، أنزل الورقة، وفي لحظة شرود نظر نحو الظَّلام في أحد زوايا المكتب، كأنَّه يريد أن يجرَّ الحقيقة المدفونة إلى السَّطح. صوت تنهّد عميق خرج من حنجرته، معبِّراً عن الحمل الثَّقيل الَّذي تحمله تلك الكلمات عندما كُتبت.

وضع الورقة على الطَّاولة أمامه، محاولاً فتحها كاملة، ثمَّ التقط للكلمات عدَّة صور ليتأكَّد أنَّها واضحة، وأنَّ بالإمكان قراءتها لاحقاً بسهولة. أعاد الورقة إلى مكانها بحذر تام، كمن يضع أثقالاً على زجاج ناعم، ثمَّ خرج وأغلق الباب برفق، كأنَّه يخفي وراءه سرّاً لا يمكن للعالم كلّه أن يفهمه، وحده من بدأ يمسك بطرف الخيط الَّذي لم يكن يتوقَّعه يوماً. لكنَّه يريد دليلاً، دليلًا يجعله ينتقم لنفسه ولصاحب الكلمات الَّتي تحملها تلك الرِّسالة.

(١٦)

في ساعات اللَّيل الكئيبة، دفع الظَّلام أبواب النُّور بقوَّة، لتحتل العتمة مكاناً قدياً تفوح منه رائحة معقِّمات الجروح. كانت تلك الرَّائحة هي أكثر ما يُقلق أمير، الَّذي اقتيد من ذراعيه والكيس الأسود يغطِّي رأسه. وعندما سمع صوت صرير الباب الثَّقيل الَّذي فُتِح، اجتاحه تيَّار هواء بارد، من ثمَّ أغلق بقوَّة وتصاعدت أصوات الخطى على الأرض، وفجأة، هبطت عصا قاسية على ظهره محدثة صدى في الغرفة الضَّيِّقة. رفعوا الكيس عن رأسه وعصبوا عينيه، ثمَّ ضربوه على وجهه. صدى خطواتهم المتسارعة حوله يعزف على وتر قلقه الَّذي يحاول إخفاءه. ارتفعت وحشيَّة الظَّلام بشكل أشد عندما بدأوا بخلع ملابسه بشكل فظيع. انقضّوا عليه كصيَّادين يبحثون عن كنز ضائع داخل جسده، فبدأوا يتلمَّسونه بحثاً عن سرٍّ غامض. صوت ضربات العصا على جلده يمتزج مع الصَّمت الَّذي يحثّهُ عليهِ كبرياؤه، وهم يستمرّون في التَّفتيش دون أن يكون له فهم واضح حول سبب هذا الجحيم الَّذي يعيشه.

أكثر ما كان يؤذيه ـ مع تلك الرَّائحة ـ أنَّه كان عارياً. كان يسمعهم وهم بالقرب منه يتهامسون: (ربَّما هنا. ابحث هنا. تحت القدم. بين شعر الرَّأس. في الوجه).

فتَّشوا بأيديهم الباردة كل بوصة من جسده العاري، لكنَّهم بعد أن

يئسوا بدأوا بضربه. أحدهم قال له: (كم هو الرَّقم؟ اعترف، أين المكان الَّذي يوجد به الرَّقم؟).

لكنَّه كان مستغرباً؛ عن أيِّ مكان يتحدَّث هذا الرَّجل! وفي كلِّ مرَّة يعيد تلك الأسئلة عليه، إلى أن قال شخص آخر: (دعنا ننتزع منه الاعتراف بطريقتنا).

لكنَّ الطَّبيب ناصر محمَّد رفض هذا بإشارة منه، وطلب منهم التَّفتيش أكثر. وبعد أن فتَّشوا كل جسده، تعاظم اليأس في أعينهم، ودخلوا إلى الغرفة للتَّشاور. اندلعت مشادَّة كلاميَّة بينهم، كان طرفها الأوَّل الطَّبيب ناصر، والطَّرف المقابل هم الأشخاص الأربعة. انعكس القلق بوضوح في تعابير وجوههم، لكن في منتصف حديثهم رنَّ هاتف الطَّبيب ناصر، وعلى الطَّرف الآخر كانت وداد، فوضع سبَّابته على فمه يأمرهم بالتزام الصَّمت.

(مرحباً، وداد. نعم، بخير. كل شيء بخير، لا تقلقي. نعم، الأمور تسير على ما يرام. مع السَّلامة). وأغلق الهاتف.

أمسك برأسه حائراً، ومن ثمَّ شابك أصابعه قرب وجهه، وأمرهم بأخذ أمير ورميه على أطراف مدينة النَّجف وتسليمه هاتفه.

في ذلك اللَّيل الكئيب، اقتادوا أميراً وهو معصوب العينين، بعدما وضعوه في السيَّارة، إلى أطراف المدينة، حيث كان الظَّلام يلتهم الأفق. وعندما وصلوا ركلوه بلا رحمة إلى اللَّا مكان، بعدما حلّوا وثاقه ورموا ملابسه خلفه، ثمَّ انطلقوا بعيداً.

جلس هادئاً وسط الظَّلام، برود يعتلي وجهه وهو يفكِّر بما حدث. برزت أنوار المدينة أمامه من بعيد، ارتدى ملابسه ببطء، وقال وهو يطبق أزرار قميصه: (لعنة الله عليك يا طعمة، هذه أفعالك).

توجَّه نحو أضواء الحياة، واضعاً يده في جيب بنطاله الَّذي وجد الهاتف داخله، كوَّر شفتيه مُصدراً من خلالهما صفيراً ناعماً، وسار بخطوات متَّزنة.

للحظة أحسَّ باشتياق غريب. وقف، ثمَّ رفع عينيه إلى السَّماء، كأنَّه يسمع صوته من داخل عقله: أين أنتِ الآن؟

تمدَّدت شفتاه بابتسامة، وأنزل رأسه ثمَّ أكمل السَّير.

منتصف اللَّيل يمتزج مع الهدوء في شوارع النَّجف، وقد خيَّم الظَّلام على المباني القديمة. دخل أمير الأزقَّة المتهالكة، ولكن كان لا يزال هناك تلميح من الحياة، فكلَّما توغَّل في المدينة أكثر كلَّما وجد أناساً أكثر.

دخل إلى شارع ضيِّق تتوسَّطه محال مغلقة، حيث يرسم الضَّوء بالظِّلال أشكالاً غامضة على أقفال واجهاتها. وفي الزَّاوية البعيدة، ومن بين جمهرة بعض الأشخاص، ناداه صوت خشب الطَّاولة الَّتي تقع بالقرب من أبواب أحد المقاهي وهو يُضرب بقوَّة من قبل شخصين يلعبان... محدثيَنِ صدىً يصل إلى آخر الشَّارع. اتَّجه نحو ذلك المقهى، وكانت الأبواب الخشبيَّة الثَّقيلة تنبعث منها رائحة النارجيلة والتّبغ. دخل ووجد نفسه في عالم يعج بالأحاديث والصُّراخ والدُّخان، حيث مجموعات تلعب، وتشكَّلت هالة من الصَّخب حولهم، حيث تنقل

القطع بسرعة وتضرب بقوَّة، بينما هتفت مجموعات أخرى بصوت مليء بالغضب وهم يتبادلون آراءهم حول فرق كرة القدم، أو حول رأيهم في الدِّين والسِّياسة، ممَّا أعطاه شعوراً بالاشمئزاز من طريقة إدارتهم للحديث، بينما يسمع صوت الكرات وهي تتصادم على الطاولات في لعبة أخرى. كانت الأصوات تتلاطم في سماء المقهى بفوضى صاخبة، لا تنتهي ولا تنتمي لمنتصف اللَّيل الَّذي كان يتصوَّره. اخترق المكان بوجه متورِّم لم يلفت انتباه روَّاد المقهى المشغولين بمن حولهم، لكنَّه أثار فضول نادل صغير هزيل الجسد، جاءه عندما جلس أمير على إحدى الطَّاولات القديمة، ويبدو أنَّه قد وضع الكثير من الزَّيت ليجعل تسريحة شعره رطبة وفوضويَّة، ورائحة العرق المتيبِّس على ثيابه تلفح الأنوف، سأل أمير عن طلبه وهو يتفحَّص وجهه. كان أمير قد وجد نقوده مع الهاتف، الأمر الَّذي جعله يتأكَّد أنَّ الموضوع أكبر من أن يكون اختطافاً لأجل السَّرقة.

ـ ما هو طلبك؟

ـ شاي، و... أريد أن أشحن هاتفي.

ـ حسناً.

قالها النَّادل الصَّغير بتفضُّل، ثمَّ انصرف. أخذ أمير يتفحَّص تلك المجموعات من الوجوه المتعبة، والَّتي تنفث الدُّخان في كلِّ مكان. كان يريد أن يرى وجه سليم. مرَّت أيَّام من دون أثر له، حتَّى أنَّ هاتفه مغلق، ولا يرد على الرَّسائل في مواقع التَّواصل الاجتماعي.

عاد النَّادل بزجاجة ماء وشاحن للهاتف، سلَّمه لأمير وهو ينظر إلى عينه المتورِّمة.

ـ دخلت في عراك؟

لمس أمير وجهه كأنَّه نسي تورُّمه، وأجابه:

ـ لا، لا، إنَّه مجرَّد حادث.

تركه النَّادل متظاهراً بتصديق إجابته. بقي أمير ساعة ونصف في ذلك المقهى يتصفَّح هاتفه، الَّذي وجد به رسائل تحمل القلق الكبير من مريم، فكتب لها: (أنا أعتذر جدّاً، كان هاتفي مغلقاً. اطمئنِّي، أنا بخير. هل ستأتين في النَّهار؟).

رفع رأسه، شاهد شرطيَّين يسيران بجانب المقهى، تذكَّر أنَّه لا يحمل أيَّ مستمسك أو هويَّة، ارتبك قليلاً وهو يراقبهما حتَّى ابتعدا، فدفع حسابه وخرج مسرعاً نحو المقبرة.

حينما وصل شعر بدفء غريب يشدُّ أطرافه، ليكتشف أنَّ الحياة البائسة للأحياء أشدُّ قسوة من الوحدة الَّتي عاشها بين الأموات، فهو لم يكن يشعر بالوحدة سابقاً هنا بين أرواح تفتقد الحياة، بل كان يحتضنه الأمان الَّذي لم يجده عندما خرج إلى المدينة. تلمَّس وجهه المتورِّم، ثمَّ استقام كأنَّه يخاطب القبور الرَّماديَّة: (كل واحد منكم عاش حياته وسط ذلك الصَّخب في الحياة، والآن أنتم هنا حيث يعود الإنسان إلى السُّكون الَّذي نشأ منه وإليه).

وعندما التفَّت خيوط الفجر حول رقبة الظَّلام، كانت تلاوة عبد

الباسط عبد الصَّمد قد اخترقت الهواء من أحد مكبِّرات الصَّوت المنتشرة، تبثُّ شعوراً يرفع القلوب نحو السَّماء: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٣] وكأنَّ خيط الفجر الَّذي انسجم مع الكلمات قام بتفكيك شظايا ليلة مرعبة قد عاشها. أغمض عينيه واستنشق هواء الفجر النَّدي بعمق، ثمَّ أكمل سيره بين القبور. وحينما كان يتوغَّل، أخرج علبة سجائر اشتراها في طريق العودة، وأشعل واحدة ثمَّ مشى خطوات قليلة، وضوء النَّهار بدأ يكشف عن احمرار على طرف شفَّته وتورُّم إحدى عينيه وقميصه الممزَّق، لكنَّه كان أثناء سيره يطلق صفيراً كأنَّ شيئاً لم يحصل، فأفزعه صوت طه وهو يركض نحوه:

ـ أين كنت؟

ـ لا أعلم!

ـ ما الَّذي حصل لوجهك؟

ـ لا تسألني؛ لا أعلم، كل الَّذي أعرفه أنَّني تعرَّضت للضَّرب.

ـ للضَّرب! مِن قبل مَن؟ مَن ضربك؟

ـ أشكُّ أنَّ العجوز وراء ذلك، لا يريدني أن أخرج خارج المقبرة. أتمنَّى أن يأتي إلى هنا اليوم، أتمنَّى.

ثمَّ نفث دخان السِّيجارة عالياً ورمى عقبها على الأرض، والتفت متفحِّصاً وجه طه، حيث كان يستمد الطُّمأنينة منه، فلطالما كان يعود

---

(٣) سورة طه: الآية ٦.

بخطواته نحو صديقه كلَّما واجهه أمر ما، ويشعر بالطُّمأنينة عندما يظهر أمامه الباب مفتوحاً، كأنهُ يعود إلى مأواه الدَّافئ.

ـ رأسي يؤلمني، لم أنم طوال اللَّيل. رافقني إلى غرفتي.

ـ حسناً. أين قضيت اللَّيل؟

ـ أتجوَّل في الشَّوارع الفرعيَّة أبحث عن السَّجائر، متجنِّباً أعين الشُّرطة.

ـ ربَّما هذه مغامرتك الأولى، كيف وجدت النَّاس؟

ـ النَّاس... النَّاس... جلست في مقهى حيث أماكن تجمُّع الشَّباب، رأيت أنَّ هناك أناساً يجرؤون على رفع راية الحرب مع الله، كما أنَّ هنالك غابة من الآراء المتشعِّبة بالتَّضليل، تجعل شجيرات الكراهية تنمو لتشكِّل حاجزاً مظلماً. أنا أتذمَّر من أولئك الَّذين يجعلون الدِّين درعاً لتبرير أخطائهم، ويحاربون التَّديُّن كوسيلة تفريغ نفسيَّة، فهم يشبهون الظَّواهر الجوِّيَّة العاتية الَّتي تغطِّي سماء الفهم، مرسومين بخيوط التَّعصُّب. أليس الدِّين في أصله رسالة سلام وتسامح؟ أليس من الممكن أن يكون الموروث الرُّوحي سياجاً يحمينا من أنفسنا ومن جحيم التَّناقضات؟ يبدو أنَّهم يرفعون راية العداء، ويجاهدون الدِّين بحقدٍ لا يعرف النِّهاية، وأنا هنا أرى في تلك الخطوات تحوُّلاً مأساويّاً لفهمهم للحقيقة. لكن هنالك سؤالاً يُحيِّرني، هل يستحقّون الكره أم يحتاجون إلى نور الفهم؟

كان طه يستمع باندهاش، لم يسبق لأمير أن تكلَّم بذلك الاندفاع الفلسفي، فانتبه أمير لذلك، ومن ثمَّ قال لطه:

ـ حسناً، وصلنا إلى الغرفة، أريد أن أنام، وأخبر ذلك العجوز ـ إن جاء للبحث عنِّي ـ أنِّي سأدفنه هنا لفعلته هذه.

ـ حسناً!

ـ أوه، نسيت، أريد أن تكتب لي كلاماً جميلاً بورقة.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني ... أعني كلاماً جميلاً أقوله لمريم! أنت تعرف أنِّي لا أجيد ذلك.

ـ آه، حسناً.

(١٧)

كان صباحاً رطباً خانقاً، وقف عصام في باب المستشفى وهو يشاهد سيَّارة الطَّبيب ناصر، الَّتي نزل منها رفقة ابنة أخيه وهما متَّجهان نحو باب المستشفى، بملامحٍ تحمل الكثير من التَّجهُّم، كان أشبه بكتلةِ مزاجٍ متعكِّر، كُتب على كلِّ تفصيلة في وجهه أنَّه مرَّ بليلة قاسية. ردَّ على تحيَّة عصام بتكلُّف، وكانت وداد تتبعه مسرعة نحو مكتبه. وبعد نصف ساعة من الانتظار، نزلت وداد ترتدي ملابس أخرى تختلف عن الَّتي دخلت بها إلى المستشفى، وهي تحمل وجهاً مبتسماً وكلمات حبٍّ وبرود يعانق مشاعرها.

(مرحباً حبيبي. اشتقت لك. كيف حالك؟)، سألته بصوت يحمل طابعاً مستعجلاً وهي متَّجهة لفتح باب السيَّارة، بينما شعر هو بالغرابة والحيرة، كيف يمكن لها أن تكون بنفس الودِّ والبرود في آنٍ واحد! فالكلمات الباردة تتساقط من شفتيها مثل قطع الثَّلج، حيث كانت غير مبالية، تمتطي جناحَي الغفلة وتطير في سماء الإهمال، تترك العواطف ترقص على حافَّة الهاوية، وكأنَّها تمتلك صمَّاماً يتحكَّم بمشاعرها، تقوم بفتح وإغلاق قنوات الإحساس حسب الحاجة.

وبينما كانا يتبادلان الكلمات، دخلت سيَّارتها مستعدَّة للرَّحيل، ثمَّ قالت له من نافذة السَّيَّارة بعد أن أغلقت الباب: (حبيبي، سأعود قريباً لنتكلَّم بخصوص موعد الخطوبة)، وابتسمت بوجهه ثمَّ انطلقت.

وقف عصام متحيِّراً، وهو يحمل الاشمئزاز بداخله بعد أن فقد خيط الأمل الَّذي كان يحثُّه على فهم المسألة كاملة، وقرَّر أن يتبعها بسيَّارة أجرة، حيث طلب من السَّائق مضاعفة الحذر والابتعاد عن سيَّارتها قدر المستطاع. انطلق خلفها، وكان قلبه ينبض بسرعة، لكنَّه لا يعلم ما الَّذي تخطِّط له، طارت الأفكار في رأسه بسرعة، وكلَّما تقدَّموا في الطَّريق، خيَّم الوضوح تدريجيّاً على الغموض الَّذي يعتريه، وبدأ يضع الأدلَّة لشكوكه. وفي لحظة من العجب ولَّدت الفضول، رأى عصام سيَّارة وداد تنحدر برفق نحو مدخل مقبرة وادي السَّلام. بينما يتسابق مع قلبه، قرَّر متابعة الأمر إلى النِّهاية، قاد السَّائق سيَّارة الأجرة بسرعة، محاولاً أن يظل بعيداً غير ملحوظ. توقَّفت سيَّارتها ونزلت منها، ثمَّ تقدَّمت وهي تمشي بسرعة.

أعطى السَّائق أجرته وأمرهُ بالرَّحيل، ثمَّ تبعها من بعيد؛ خوفاً من أن تلتفت وتراه، لكنَّها استمرَّت بسيرها وتوغَّلت أكثر في الشَّارع المعبَّد، وعندما وصلت إلى طريق فرعي في المقبرة دخلته دون التفات، كأنَّها تحفظ الطَّريق جيِّداً. دخل وراءها وشاهدها من بعيد وهي تتكلَّم مع امرأة عجوز ترتدي عباءة قديمة، لم يميِّز شكلها جيِّداً، لكن يبدو أنَّها تعرف المقبرة جيِّداً، كانت تحمل شيئاً غريباً في يديها. لم تأخذ محادثتهما الكثير من الوقت، حيث شاهد وداد تُخرج من حقيبتها نقوداً دون أن تعدّها وتعطيها لها، وانطلقت بعد ذلك نحو الطَّريق الَّذي أشارت له تلك العجوز بيدها.

وبعد أن ابتعدت وداد، سار عصام نحو العجوز بخطوات هادئة، وحينما رأته استدارت وحاولت المشي بسرعة، لكنَّهُ استوقفها وقال لها:

ـ من فضلكِ، لديَّ سؤال.

ـ ماذا تريد؟

ـ ماذا قالت لكِ تلك الفتاة؟

ـ أيُّ فتاة؟

ـ الَّتي كانت تكلِّمكِ قبل قليل!

ـ آه، تلك! تسأل عن قبر ما.

أخرج عصام من جيب سترته محفظة، واستخرج أوراق نقديَّة، ثمَّ سألها مرَّة أخرى:

ـ ماذا أرادت منكِ تلك الفتاة؟

ابتسمت العجوز وطرقت مرَّتين بمطرقة الحديد الَّتي تحملها، ثمَّ مدَّت إحدى يديها نحو النُّقود وهي تبتسم. وما إن سلَّمها النُّقود، قالت له:

ـ تلك الفتاة الطَّيِّبة مريم، تأتي إلى هنا منذ أسابيع، وقعت في حبِّ الدَّفَّان الَّذي يعمل في المدفن الشَّرقي من المقبرة، وأنا أعطيها معلومات عن تحرُّكاته كل يوم.

شعر بصدمة تلتفُّ حوله كالظَّلام المفاجئ، كلمة (مريم) كانت كبرق يضيء ظلام عقله. شعر بدقَّات قلبه وكأنَّها تراقصت على لحن غريب. وبين أجواء المقبرة وكلمات العجوز، ظهرت حقائق مريرة

أمام عينيه، فصار يدرك أنَّه كان يسير في طريق ملتوٍ يجهل حقائقه الخفيَّة، وأنَّ الرِّياح الَّتي تسلَّلت إلى حياته ودفعته نحو الحب، ها هي الآن تجرّهُ نحو الفقد.

بلع ريقه بثقل، وكأنَّه يبتلع حقيقة مُرَّة كان يجهلها طويلاً، ثمَّ قال لها:

ـ اسمها مريم! هل أنتِ متأكِّدة؟

ـ نعم! ما بك؟

ـ لا شيء.

انصرفت العجوز عنه بخطى غير مسموعة، تاركة وراءها ذلك المكان الَّذي انكشف فيه غموضه وتبدَّلت حياته. أمَّا هو، فراح يمضي بصمت كذلك، وبينما كان يحمل الضّعف في خطواته، كان يحتضن القوَّة الخفيَّة الَّتي نمت من أطراف ذلك الضّعف، حيث خرج من المقبرة الَّتي دفن فيها آخر شعور لفتاة استغلَّت عاطفته، تلك الفتاة الَّتي توغَّلت داخل المقبرة وسارت نحو الغرفة القديمة الَّتي يسكنها أمير، وحينما وصلت وجدت طه جالساً هناك وعلى وجهه تبدو ملامح الحزن، فانطلقت نحوه وهي تحمل شيئاً من القلق. وصلت إليه، ثمَّ قالت له قبل التَّحيَّة:

ـ ماذا حصل؟ هل أمير بخير؟

فأجابها، بعد دقيقة من الصَّمت:

ـ نعم، بخير.

ـ لِمَ تبدو حزيناً إذن؟! هل أنت بخير؟

ـ طعمة...

ـ من هو طعمة؟

ـ صاحب المدفن.

ـ ما به؟

ـ أصيب بنوبة قلبيَّة. أخبرني عامل في مدفن قريب منَّا.

ـ أمر محزن. أتمنَّى أن يكون بخير، إن شاء الله. لكن، هل تحبّه لهذه الدَّرجة؟

ـ لأنَّه كان الوحيد الَّذي يرعاني ويجلب لي الدَّواء والطَّعام والشَّراب.

وضعت الأوراق الَّتي تحملها بيدها على صخرة قريبة من طه ومن غرفة أمير، ثمَّ جلست وقالت:

ـ أين أمير؟

ـ نائم. تعرَّض ليلة البارحة للضَّرب.

ـ للضَّرب! ممَّن؟

ـ لا أعرف. لا أعرف.

فُتح باب الغرفة وخرج أمير وهو يقاوم ضوء الشَّمس لكي يفتح عينيه الَّتي كان وَرَمُ إحداها قد ازداد، وعندما تلاقت عيناه مع عيني مريم، كانت اللَّحظة تحمل بين جنباتها لمحة من الطُّمأنينة، فبالرَّغم من أنَّ وجهه كان يحمل أثر الألم، إلَّا أنَّ بسمته كانت مثل شعاع شمس

يتسلَّل إلى الظَّلام. سُكِبت السَّعادة في قلبه كنسيم لطيف يلامس جروحه. تقدَّم نحوها مبتسماً، وقال لها: (صباح الخير).

وقبل أن ترد، قال له طه: (أنت لم تنَم سوى ساعتين!).

لم يجِبهُ أمير، وتقدَّم خطوات حتَّى قال له طه مرَّة أخرى: (شخص أخبرني أنَّ الحاج طعمة أصيب بنوبة قلبيَّة).

وقف واستدار له، رغم سخطه من الحاج طعمة إلَّا أنَّه لا ينكر تسارع دقَّات قلبه قلقاً ممَّا سمع.

ـ هل أنت متأكِّد؟ هل هو بخير الآن؟

ـ لا أعرف.

أخرج هاتفه واتَّصل بالحاج طعمة، وبعد رنَّات طويلة أجابه صوت يختلف عن صوت طعمة.

ـ أين الحاج طعمة؟

ـ هو الآن في العناية المركَّزة.

ـ هل هو بخير؟

ـ حالته مستقرَّة، لكنَّه وحيد، لم يأتِ أحد ليسأل عنه.

ـ من أنت؟

ـ أنا الممرِّض الَّذي أراقب حالته.

أغلق أمير هاتفه، وذلك القلق لا يزال على ملامحه. بادل مريم النَّظرات، وكانت القبور المحيطة تبدو كشهود صامتة عليهم. وفجأة، كأنَّ صوت هاتفها انقضَّ على الصَّمت المحيط بهما حين تلقَّت رسالة

نصِّيَّة، رفعت الهاتف لتقرأ تلك الرِّسالة الَّتي انعكست في عينيها كحروف تتناثر في الفضاء الصَّامت. ظهر عليها التَّوتُّر، ووجهها اكتسى بالارتباك كزهرة تخشى أن تفقد أوراقها بسبب نسمة هواء عابرة. لاحظ أمير ذلك الارتباك، ثمَّ سألها بحذر:

ـ هل حدث شيء؟

ـ لا، لا شيء، لكن يجب أن أذهب.

ـ متأكِّدة؟ كل شيء على ما يرام؟

ـ نعم، لا تقلق. سأكتب لك اللَّيلة مثل كل يوم. وداعاً.

وعندما غادرته بابتسامة ومشت عنه خطوات قليلة، صاح عليها: (مريم). استدارت له ولا تزال تلك الابتسامة تتعلَّق بشفتيها. قال لها: (منذ أن أصبحتِ تكتبين لي ليلاً، أدركتُ حينها أنَّ الأيَّام يمكن أن تُصنع من نهاياتها، أدركتُ أنَّ اليوم قد يبدأ من اللَّيل).

ارتفع خدَّاها بابتسامة، ولكن كعادتها تتظاهر بالخجل وتنغمس في دور البراءة، وفي أعماقها تتلاعب بخيوط الخبث ببراعة، كأنَّ لديها مسرحاً صغيراً في عقلها يعرض فصولاً من التَّظاهر والتَّمثيل متى ما أرادت.

وحينما رحلت، استدار أمير نحو طه، ثمَّ تنهَّد وقال له: (أشعر أنَّها شمس خافتة تبحث عن سماء تستضيء بها. أشعر أنَّها أغنية عذبة تنتظر أن تجد مستمعاً يفهم لحنها).

كان طه يُحدِّق بهِ دون أن يتكلَّم، بينما أمير وجَّه نظره نحو الأفق، وبعد صمت قال: (عندما تكون بجانبي، تضفي على العالم بريقاً خاصّاً،

وأشعر وكأنِّي أعيش في عالمٍ مختلف، عالم تجتاحه السَّعادة والهدوء. أرى أمامي أعماق البحار تتمايل بلطف، وسماء زرقاء تمتزج بألوان الغروب. لقد منحتني إحساساً بأنَّ الحياة ليست مجرَّد أيَّام مليئة بالأحزان، وحوَّلت أيَّامي إلى أيَّام تشبه حقل زهور في فصل الرَّبيع. أشعر أنِّي في مكان آخر، مكان لا يصله اضطراب العالم الخارجي عندما أكون معها).

تثاءب طه، وقال: (ربَّما تكون شهوة! أو شعور جديد لم تعشه من قبل!).

التفت إليه وقال، بعد أن أشعل سيجارته ونفث دخانها عالياً: (شهوة! يا صديقي، إنَّ تلك الأمور خارج إطار الزَّواج تشبه قضاء الحاجة في المرحاض، لا أعتقد أنَّ شخصاً عاش حياته شاهداً على الموت، يفكِّر بالله دائماً، شخصاً قد تربَّى على حبِّ الإمام علي، يفعل تلك الأمور).

وقف طه، وبعدما أزال التُّراب من ثوبه بضربات من يديه، قال له: (مشاعرك تحمل قيمة لا تُقدَّر. دعها تتدفَّق كنغمة رائعة، لكن عليك أن تختار مستمعيها بعناية).

في الجانب الآخر من المقبرة، ابتعدت مريم وخرجت منها، وأخرجت هاتفها لتقرأ الرِّسالة القادمة من الطَّبيب ناصر بتركيز: (وداد... إنَّ السَّجين سيخرج قريباً، سيُكشَف أمرنا إن لم نعرف مكان القبر. وإذا لم نعرفه خلال هذا الأسبوع، علينا تنفيذ الخطَّة الثَّانية، وأنتِ تعرفينها).

أحسَّت وداد (مريم) بدوار شديد، حتَّى كادت تسقط مرَّتين، فهي تعرف جيِّداً أنَّ الخطَّة الثَّانية هي قتل أمير.

(١٨)

في منتصف اللَّيل السَّاكن، اهتزَّ هاتف أبي علي على الطَّاولة الخشبيَّة بجوار السَّرير لمدَّة طويلة، استيقظ على إثره وهو يتلمَّسه بيده. كانت الأحرف تتراقص على شاشة الهاتف، فسحب نظَّارته من على الطَّاولة بتوتُّر ووضعها على أنفه. مكالمة فائتة ورسالة نصِّيَّة من الصّحفيَّة مارلين ستانكوف على تطبيق (واتس أب)، أسرع إبهامه لفتح الرِّسالة الَّتي تقول: (أبا علي، صباح الخير. آسفة لأنِّي أرسلت لك في هذا الوقت، لكن الأمر مُهم. هل تذكر السِّجن الَّذي زرته عندما كُنت في النَّجف؟ لقد قمت بزيارة أحد السُّجناء، وذلك السَّجين سوف يخرج قريباً. سأعطيك كل التَّفاصيل لاحقاً لكي تأخذه إلى المقبرة؛ لأنَّك تعرف المكان، وهو يعرف كل شيء، وسوف يتكفَّل بالأمر).

تأمَّل طويلاً في شاشة الهاتف الَّتي انطفأت. كان يتأرجح بين قرار الرَّفض الَّذي يبعده هو وعائلته عن مشاكل هو في غنىً عنها، وبين قرار أخلاقي ودين قديم يجب تسديده. لكنَّ ضميره كان كالضَّوء الَّذي يبصر خلف الظَّلام، وقد أخذ بيده إلى إضاءة شاشة الهاتف مرَّة أخرى وكتابة ردّاً على رسالة مارلين: (حسنًا، أنا بانتظار التَّعليمات).

ثمَّ حاول الرُّجوع إلى النَّوم وسط سكون المدينة، حيث يلوح الظَّلام بأسراره والأقدار تتلاعب بخيوطها. وفي طرفها الآخر تقبع

غرفة صغيرة وسط مقبرة وادي السَّلام، مُحاطة بجدران باهتة، ويشعُّ من نافذتها الصَّغيرة بريقٌ من ضوء القمر، وداخل تلك الغرفة يجلس شاب وهو يشعر بالسَّعادة وكأنَّه يطير بجناحي كلمات يقرأها عبر محادثة إلكترونيَّة. وبينما يسترسل في كتابة مشاعره، ترتسم ابتسامته وتتسلَّل عبر وجهه كلمسة خفيفة من ضياء القمر. رغم أنَّه كان متعباً جدّاً لدفنه ثلاثة موتى اليوم، إلَّا أنَّ تعبه قد زال مع الحروف الَّتي يكتبها.

انتشر السُّكون ببطء إلى أروقة المكان بعدما أنهى الكلام معها، وبقي ينظر إلى سقف غرفته. قرَّر أن يخطو خطوة إلى المستقبل بكلِّ شجاعة، وكان القرار جاهزاً في عقله، حيث بدأت روحه تتَّجه نحو طموحات جديدة، خطَّط في ذهنه للمستقبل الَّذي سيبنيه معها، تخيَّل نفسه خارج تلك المقبرة يعيش حياة حرَّة مع عائلة صغيرة يشترك مع مريم في تكوينها. على الرَّغم من أنَّ أوراقه الثُّبوتيَّة ستصدر بعد أيَّام، إلَّا أنَّه قرَّر أن يفاتح الحاج طعمة بقراره فور خروجه من المستشفى، وكأنَّ اللَّحظات تتسارع كنسمات الرَّبيع، وتسلَّلت الفرحة إلى قلبه مثل نهر جارف. وبينما كانت السَّاعات تنقضي ببطء، كان أمير يحمل في قلبه أمنية للغد، تلك المشاعر والأمنيات قد حملت طاقة قويَّة إلى داخله منعته من النَّوم. تسلَّل الفجر سريعاً، وبعد أن صلَّى، استسلمت عيناه للنَّوم، وكانت هي في أحلامه عندما غطَّ في نوم عميق لساعتين كان فيها كالملاك الَّذي يستريح في أحضان السَّماء. ولكنَّ الاتِّصال الوارد ورنين الهاتف الَّذي كان مكرَّراً، أحدث ثقوباً في قماش حلم جميل قد رآه. مدَّ

يده تحت الوسادة متلمِّساً الهاتف وهو مغمض العينين، وعندما عثر عليه حاول فتح نصف عين ليعرف من المتَّصل، فكان رقماً دون اسم.

ـ نعم؟

ـ السَّلام عليكم.

ـ وعليكم السَّلام.

ـ أنا من المستشفى، و... الحاج طعمة في ذمَّة الله.

غرفة النَّوم تحوَّلت إلى مأتم صامت، أحسَّ أنَّ اللَّيل نفث في وجهه رياح الحزن، انتقل إلى حقيقة مريرة تُعلن وداعاً لأحد أقرب الأشخاص إليه. على الرَّغم من أنَّه كان يدفن الموتى، لكنَّه لم يشعر يوماً بشعور أقربائهم كما الآن. كان يعرف الفقد، ويرى الَّذين تأثَّروا به، ولكنَّه فهم أنَّ الإدراك الحقيقي له ينمو داخل أرواح الَّذين يعيشونه.

بقي ينظر إلى جدار الغرفة، وقد ذهبت ذاكرته إلى أيَّام الصِّغَر، حيث كان الحاج طعمة يتألَّق كنجم ساطع في سماء طفولته، رعاه بحنان واهتمام، كان له صوت الحكمة، ويداه تحملان ليس فقط الطَّعام ولكن أيضاً دروس الحياة. كانت ذكرياته مشبَّعة بلحظات الدِّفء والأمان، على الرَّغم من قساوته وتشدُّده فيما يخص خروجه من المقبرة.

جرَّ نفسه بثقل من فراشه متناسياً تعبه، اغتسل وتوجَّه إلى مكتب الدَّفن لأخذ الأوراق اللَّازمة لشهادة الوفاة، ثمَّ انطلق إلى المستشفى.

وحينما وصل تكفَّل، وبمساعدة أحد عمَّال المكاتب المجاورة، بغسل وتكفين الحاج طعمة، لكن ما أثار استغرابه أثناء التَّغسيل أنَّه شاهد شيئاً

غريباً على جسد الحاج، حيث كتب على منطقة صغيرة أعلى كتفه الأيمن أرقام بطريقة أدَّت إلى تشوُّه تلك المنطقة كأنّها جرح مُلتئم بارز (٣٠٦ ش. م.)، ورغم أنَّه لاحظها بدهشة، إلَّا أنَّه لم يُلقِ لها اهتماماً يُذكر.

وضعه في تابوته الخشبي، ثمَّ حمله مجموعة من المُشيِّعين نحو حضرة الإمام علي، كأنَّهم يُريدون منه أن يلقي الوداع الأخير. أمَّا أمير، فقد اتَّجه نحو المقبرة ليقوم بحفر القبر بنفسه. تمَّت مراسيم الدَّفن بحضور جميع العمَّال وأصحاب مكاتب الدَّفن الأخرى ومن يعرف الحاج من أهالي مناطق النَّجف القديمة. وبعدها رحل الجميع وبقي طه بالقرب من أمير، الَّذي أحسَّ بأنَّ خطاه نحو السَّعادة قد تأجَّلت، وهو يحمل في قلبه وداعاً لرجل ترعرع معه وسط القبور. أشعل سيجارته بعدما أكمل الدَّفن، وجلس بالقرب من القبر ويراقبهُ طه من بعيد، حيث قال له بصوت مخنوق بسبب بكائه الكثير: (هل تعلم يا أمير، عندما يموت من نحبُّ، يتبعه الحزن كظلٍّ مطلق، يسكن قلوبنا كأنَّه طائر أسود يطاردنا في كلِّ زاوية من حياتنا، تتبدَّد الألوان ويصبح العالم رماديّاً، كأنَّ اللَّحظات تجمَّدت في مشهد لآخر موعد معهم).

وبينما كان أمير ينفض رماد السِّيجارة الَّتي بين أنامله كلَّما أخذ نفساً منها، فجأة، سمع صوت خطى تتقدَّم باتِّجاههم. تسارعت دقَّات قلبه؛ لأنَّه اعتقد أنَّ مريم قادمة، فرمى نصف سيجارته ووقف بسرعة، إلَّا أنَّه شاهد رجلين ما إن رأياه حتَّى توقَّفا عن الحركة. كان الرَّجل الَّذي يسير في المقدَّمة مألوف الملامح، حاول أمير تذكُّره لكنَّه لم ينجح، أمَّا الرَّجل الثَّاني فكان يبدو عليه التَّعب والنُّحول، والَّذي بادر بالسُّؤال:

ـ أنت أمير؟

ـ من أنت؟

ـ هل أنت أمير؟

ـ نعم. تفضَّل، من أنت؟

تقدَّم منه حتَّى أصبح يفصله عنه قبر واحد، ثمَّ قال له:

ـ أنا رجل دفع مقابل حياتك عشرين سنة في السِّجن!

التفت أمير إلى طه، كأنَّه يقول له: (ماذا يحدث؟! من هو هذا الرَّجل؟!)، لكنَّه اكتفى بتلك النَّظرة، والَّتي سرعان ما تحوَّلت إلى سؤال مسموع حين سأله أمير مرَّة أخرى:

ـ عفواً؟ من أنت؟

استقام الرَّجل في وقفته، وقال لأمير:

ـ لأسألك أنا، من أنت؟ هل تعرف من أنت؟

ارتبك الشَّاب من ذلك السُّؤال؛ لأنَّه السُّؤال الوحيد الَّذي لا يعرف إجابته، رغم بساطته وسهولته لدى غيره. اختلط فضوله بالعصبيَّة ونفاد الصَّبر، وأراد أن يتكلَّم بانفعال، إلَّا أنَّ الرَّجل رفع يده بإشارة للصَّمت، ثمَّ قال له:

ـ أنا الطَّبيب نديم الجفَّار، أو السَّجين نديم الجفَّار!

أغمض أمير نصف عينيه كأنَّه يتجنَّب ضوءاً ساطعاً، إلَّا أنَّ تغيُّر ملامحه كان بسبب الاستفهام ومحاولة منه للتَّذكُّر:

ـ الطَّبيب نديم الجفَّار؟ نديم الجفَّار... عفواً، من تكون؟ لم أسمع

بهذا الاسم. لكنِّي أعرف ملامح ذلك الرَّجل، رأيته سابقاً، لكنِّي لا أتذكَّر أين!

أدار الطَّبيب نديم الجفَّار رأسه نحو الرَّجل الَّذي يقف خلفه، وقال لأمير:

ـ هذا الرَّجل اسمه (أبو علي).

ـ لا أعرف اسمه، لكنِّي رأيته من قبل. حسناً، لا يهم. ماذا تريد منِّي؟

ـ أنا لا أريد منك، بل سوف أعطيك.

ـ ماذا تعطيني؟

ـ هل أنت مستعد للسَّماع؟

ـ أتم الاستعداد.

وجد الرَّجل مكاناً له على طرف أحد القبور وجلس، واقترب أمير الَّذي كان يحمل الاستفهام في ملامحه، وتبعه طه ثمَّ أبو علي، ووقفوا بالقرب منه.

بدأ كلامه بجملة تدل على أنَّه سوف يتكلَّم عن شيء كبير: (أتمنَّى ألَّا تقاطعني، بُني، ودعني أكمل حتَّى النِّهاية).

هزَّ أمير رأسه، وقال: (لك ذلك).

(ما زلت أتذكَّر السَّنوات كأنَّها الأمس، أتذكَّر الحياة قبل دخولي السِّجن بتفاصيلها، لكنَّ ذاكرتي توقَّفت فور دخوله. أنا، يا بُني، كُنت أعمل في مستشفى النَّجف العام مع اثنين من أقرب الأصدقاء لي، سواء

في الحياة المهنيَّة أو خارجها، وهما الطَّبيب ناصر محمَّد والطَّبيب رشيد طعمة. منذ تخرُّجنا من الجامعة لم نفترق أو نختلف، لم يحدث شيء كما حدث في ظهيرة ذلك اليوم، حيث كنَّا نحن الثَّلاثة نجلس في حديقة المستشفى، وفجأة دخل أفراد من قوَّة عسكريَّة إلى المستشفى. كُنَّا نتابع الأمر من مكاننا دون اهتمام، رأيناهم وهم يتنقَّلون بين أروقة المستشفى، وبين أبوابها خروجاً ودخولاً، إلى أن جاء شخص نحونا وبدون تحيَّة قال: (من هو ناصر محمَّد؟). لا أخفي عليك الخوف والارتباك، ولم يخفَ علينا خوفه حين أجابهم: (نعم... أنا هو ناصر محمَّد). كان يتمنَّى أن يتخلَّى عن اسمه للحظات وينكر نفسه، أحسسنا لأوَّل مرَّة بثقل ذلك الاسم على لسانه. وبعدما أجابه الطَّبيب، أدار وجهه نحو الضَّابط وصاح، كأنَّه وجد كنزاً: (سيادة الرَّفيق... سيادة الرَّفيق، هذا هو ناصر محمَّد). فقال له ذلك الضَّابط، دون أن يكلِّف نفسه عناء الحديث: (اعتقلوه). ثمَّ نفَّذ ذلك وذهبوا بالطَّبيب ناصر محمَّد دون أن يعرف أحد إلى أين. مرَّ أسبوع كامل بعد ذلك الاعتقال ونحن نعيش أيَّاماً صعبة، خوف وقلق وارتباك عند كلِّ طرقة باب، وعندما يسأل عن اسمنا أيُّ شخص، كنت أرتجف في مكاني وأقول له: (من أنت؟ ماذا تريد؟)، حتَّى يتبيَّن لي أنَّ السَّائل هو مريض. وفي أحد الصَّباحات، عندما دخلنا إلى المستشفى لبدء عملنا، وجدنا الطَّبيب ناصر محمَّد يستقبلنا بحفاوة شخص مشتاق كأنَّه كان في سفر لأجل الرَّاحة. تبادلنا نظرات الحيرة وملامح الصَّدمة على وجوهنا، كيف هذا وكُنَّا نعيش بقلق كل هذه

الأيَّام! وعندما سألناه عمَّا حصل، قال: (لا شيء، فقط ذهبت معهم، وكان لديهم شخص مريض قمت بعلاجه). سأله الطَّبيب رشيد سؤالاً جعله يرتبك قليلاً ليزرع داخلنا الشَّك: (لكن أين كنت هذه المدَّة؟). قال لنا بعد تأتأة وتلعثم: (لقد اتَّصلوا بمدير المستشفى لكي يمنحني إجازة بعدما قمت بمعالجة مريضهم). ومنذ ذلك الحين شعرنا بشيء غريب يحصل مع صديقنا، بدأ بالابتعاد عنَّا، وأصبح الضُّبَّاط والعساكر يزورونا بين حين وآخر، ومعهم سجناء أو معتقلين، وكلَّما نسأله كان يتضايق ويجيب بأنَّه بعد أن أُعجب به الضُّبَّاط أصبح الطَّبيب المفضَّل لديهم، والطَّبيب الموثوق عندهم لمعالجة السُّجناء والمعتقلين.

مرَّت الأيَّام تلتها الأشهر والطَّبيب ناصر محمَّد يبتعد أكثر ويصبح أكثر انطواءً، رغم أنَّه تمرَّد في عمله وأصبحت لديه سلطة حتَّى على مدير المستشفى.

لكنَّ الطَّبيب رشيد طعمة لم يصدِّق رواية الطَّبيب ناصر بما يخص تبريره بشأن السُّجناء والمعتقلين ومعالجتهم، فكان يراقبه عن كثب، وكنت أحذِّره من ذلك. الشَّيء الغريب الَّذي دفع الطَّبيب رشيد طعمة للبحث هو أنَّ أغلب السُّجناء الَّذين يأتي بهم العساكر كانوا يموتون أثناء العلاج، ذلك الأمر الَّذي دفع الطَّبيب رشيد لإجراء فحوصات لهم في الخفاء عند دخولهم المستشفى وعندما يموتون. إلى أن جاء ذلك اليوم الَّذي جاءني به رشيد وهو يحمل أوراقاً تثبت أنَّ أغلب الحالات الَّتي ماتت من السُّجناء كانت بفعل ضخِّ الزّرنيخ مع المغذِّي، أو عن

طريق التَّلاعب بضغط الدَّم، أو عن طريق التَّلاعب بالسُّكَّري. وما جعله يثبت ذلك هو فتحه لخزنة الطَّبيب ناصر وأخذ جميع تلك الأوراق وكمِّيَّة كبيرة من النُّقود الَّتي خبَّأها، والَّتي كانت مكافآت ماليَّة على فعلته. وعندما سألته، قال لي: إنَّ تلك النُّقود يجب أن تصل إلى أهالي الضَّحايا.

وبعدما توالت السَّنوات، وتحديداً بعد سقوط النِّظام عام ٢٠٠٣، واجهه الطَّبيب رشيد طعمة وهدَّده بكشف سرّه وفضح أمره؛ لأنَّه خان مهنته وعمله، فأصبح حينها الطَّبيب رشيد خطراً كبيراً على الطَّبيب ناصر، فهو يعرف مصيره إذا وقعت تلك الأوراق بيد الدَّولة الجديدة الَّتي كانت تعاني من الضّعف حينها. شاء القدر أن تحدث خلافات كبيرة في حياة الطَّبيب رشيد عندما تزوَّج، حيث عارضه والده، وأقسم أنَّه سيتبرَّأ من أيِّ طفل ينتج من هذا الزَّواج، وهذا ما حصل، حيث هجر الطَّبيب رشيد عائلته على مضض، وبعد ذلك بفترة قصيرة توفِّيت والدته. وفي أحد الأيَّام...).

تنهَّد الطَّبيب نديم وصمت قليلاً، لكنَّ أمير قال له: (أكمل... أكمل أرجوك).

(وفي أحد الأيَّام، بعدما أحسَّ الطَّبيب رشيد بخطر وجوده وبعد أن قمت بتحذيره من القتل، قرَّر أن يسافر خارج العراق، تحديداً حيث تعيش زوجته. كان لديه طفل عمره آنذاك سنة واحدة. وفي ظهيرة ذلك اليوم، تحديداً في الشَّهر الثَّامن من سنة ٢٠٠٤، كُنت على دراية بما سوف

يحصل، فذهبت بسيَّارتي إلى المدينة القديمة في النَّجف، حيث كنت أشاهد الأمر من بعيد، وهذا ما يجعلني الآن أموت حسرة... كنت أشاهد ما حدث كفيلم سينمائي أعرف نهايته جيِّداً. خرج الطَّبيب رشيد، فتبعته سيَّارة، وعندما أحسَّ بها دخل في أحد الأزقَّة القديمة. أغمضتُ عيني عندما توقَّعت ذلك الصَّوت، وهذا ما حصل! صوت رصاصة هزَّ أرجاء المكان، وخروج شخصين وهما يحملان حقيبته ويركضان باتِّجاه سيَّارتهما. توجَّهت إلى الطَّبيب رشيد علَّني أجد فيه شيئاً يدل على الحياة، لكنَّني لم أجد أثراً لها سوى في الطِّفل الَّذي يصرخ بقربه والدِّماء تغطِّي وجهه، وكان مصدرها جُرحاً إثر سقوطه من يدَي أبيه على الأرض. حملت ذلك الطِّفل وتوجَّهت بهِ نحو المقبرة...).

كان أمير ينظر إلى الرَّجل بعينين متلهِّفتين، كأنَّه يترقَّب شريطاً من الحقيقة يلمع في عتمة ماضيه المُظلَّل. دقَّات قلبه كانت تشكِّل تسارعاً إيقاعيّاً يصدح في أذنيه. كانت اللَّحظات تمضي ببطء، وكلَّما انطلق حرف من فم ذلك الرَّجل، كلَّما زاد التَّوتُّر فيه. كأنَّه يقف على حافَّة الغموض، مشدوداً كقوس السَّهم الَّذي ينتظر الإطلاق. بدأت يداه ترتعشان وهو يضغط على أصابعه بقوَّة، وأكمل الطَّبيب كلامه:

(عندما وصلت إلى المقبرة، ذهبت تحديداً إلى ذلك الرَّجل...).

وأدار وجهه نحو التُّراب الَّذي ما زال رطباً، والَّذي يرقد تحته الحاج طعمة.

(سبقني الموت إليه. لقد عرفت بوفاته اليوم... عندما أخبرته بمقتل الطَّبيب رشيد، بقي يبكي كثيراً).

كأنَّ الزَّمان توقَّف لحظة، ارتفعت عيناه بفزع، وابتلع ريقه بصعوبة، اهتزَّت شفتاه وهو يحاول استيعاب عاصفة الأفكار الَّتي اجتاحت عقله، انطلق صوته كالرَّعد يدوي في أرجاء المكان عندما صاح: (لحظة!).

توقَّف الطَّبيب عن الكلام، وأكمل أمير بصوت مرتجف: (ابن رشيد طعمة... الحاج طعمة... أنت تقصد...؟!).

واصل الرَّجل كلامه دون اكتراث بسؤال أمير:

(عندما انتهى الحاج طعمة من بكائه، وقف أمامي ينظر إلى الطِّفل بتردُّد، وفي النِّهاية أخذ الطِّفل من بين يدَي ورحل. وبعد ثلاثة أشهر...).

سكت للحظة، وأطلق حسرة طويلة، وقال:

(هل تعلم، إنَّ العدو الَّذي يلبس ثوب الصَّديق، تكون ضربته موجعة. فبعد ثلاثة أشهر، تمَّ اعتقالي بتهمة قتل الطَّبيب رشيد. ليس فقط بسبب وجود بصماتي على جسده عندما تلمَّست الجثَّة، بل بجمع أدلَّة عديدة منها مقطع من إحدى آلات التَّصوير وأنا أحمل الطِّفل، واعترافات مع إثباتات قدَّمها الطَّبيب ناصر محمَّد ضدِّي للتَّخلُّص منِّي).

وقف الطَّبيب نديم مستنداً على ركبتيه بصعوبة، تقدَّم نحو أمير، وتلك الوجوه الَّتي حوله تراقبه بصمت، وقف أمامه ورفع يده نحو جبينه ليزيل خصلات شعره البُنِّي، وعندما رأى النَّدبة ابتسم وقال: (نعم... إنَّ الطِّفل الَّذي حملته قبل عشرين سنة هو أنت، والطَّبيب رشيد طعمة هو والدك، والرَّجل الَّذي دفنته اليوم هو جدّك الحاج طعمة).

تلاشت قوى أمير كظلٍّ تسرَّب من بين أصابع قدميه، فجلس على حافَّة أحد القبور، متسوِّلاً من التُّراب الرَّطب الَّذي أمامه والَّذي يرقد تحته الحاج طعمة أجوبة لأسئلته وعتابه. فتلك اللَّحظة الفارقة الَّتي شعر فيها بثقل الحقيقة، وسط تداخل الأفكار والمشاعر، كانت كفيلة بتشكيل فجوة دماغيَّة تتَّسع لكلِّ التَّساؤلات. ها هو يحمل في قلبه الجنَّة والنَّار، وفي عينيه انعكاس عالم ينهار ويعيد بناء نفسه من جديد.

شفتاه المرتجفتان خرج من بينهما صوت هادئ يوضِّح تساؤلاً غامضاً بالنِّسبة له: (إذن، لِمَ لَمَ يصارحني كُل تلك السَّنوات، أو يخبرني بهذه القصَّة؟).

أجابه الطَّبيب نديم: (لأنَّه تبرَّأ منك ومن أبيك قبل أن تولد، وأقسم على ذلك).

نظر أمير نحو الطَّبيب، وقال: (تبرَّأ منِّي! لِمَ؟).

تنهَّد الطَّبيب نديم، وأطلق حسرة وقال: (لأنَّ والدك تزوَّج من صحفيَّة ألمانيَّة في ذلك الوقت، الشَّيء الَّذي عارضه جدّك بشدَّة. لكنَّه رغم ذلك احتضنك ورعاك. لكنَّ السَّبب الأكبر بأنَّه لم يخبرك القصَّة، هو أنَّه كان خائفاً عليك).

وقف أمير مستنداً على جدار القبر، وهو يحس بدوار شديد. وضع جبينه بين السَّبَّابة والإبهام، ورفع يده الأخرى وهو يقول: (لحظة، لحظة... أنت تقصد تلك الصّحفيَّة الَّتي جاءت منذ فترة...).

(نعم، بُني، الصّحفيَّة الَّتي جاءت مع أبي علي. الطَّبيب ناصر محمَّد

يملك أصدقاء لديهم نفوذ في كلِّ مكان، ممَّا سهَّل أمر معرفته بقدوم الصّحفيَّة ـ زوجة صديقه الَّذي قتله ـ إلى العراق. كان يعرف جيِّداً أنَّها جاءت لترى ابنها وتطمئن عليه، ممَّا أدَّى إلى تتبُّع أثرها ومحاولة اختطافها كما قال أبو علي).

سقطت الدَّمعة كقطرة النَّدى، كأنَّها كانت تشير إلى لحظة تحوُّل مهمَّة في رحلة الذَّات، لحظة انفجار العواطف المكبوتة، وكأنَّ الجرح الخفي في قلبه بدأ ينزف. اقترب منه طه وأمسك بكفته وهو يضغط عليه، مسح عينيه وقال لهُ مُبتسماً: (لا بأس، مهما حاولت التَّعبير فأنت لا تستطيع أن تشرح ذلك الشُّعور مثلما تفعل دمعة حقيرة تسقط في وقت غير مناسب. تخيَّل يا طه! كان جدِّي كل تلك السَّنوات معي، وكانت أمّي هنا أمامي! كُنت وحيداً عندما جاءت، وحينما رحلت أصبحت وحيداً أكثر).

ثمَّ نظر إلى الطَّبيب نديم وقال له: (أنت قلت أنَّ جدِّي كان خائفاً عليَّ! ممَّ كان خائفاً؟).

ـ لا أعرف، تلك هي الحلقة المفقودة. فبعد شهر من تسليمي إيَّاك إلى جدِّك، جاءني الطَّبيب ناصر وهو يحمل الشَّر في عينيه، وطلب منِّي أن أدلّه على مكان الطِّفل. سألته ما غايته، فرفض أن يقول لي، وهدَّدني بتلفيق تهمة لي إن لم أدلّه. عندها ذهبت إلى جدِّك وأخبرته بالأمر، وطلب منِّي عدم الإفصاح عن شيء، وعدم إخباره بأنِّي سلَّمت الطِّفل إلى رجل في المقبرة. لحسن الحظ كان الطَّبيب ناصر لا يعرف جدّك ولا عمله.

ـ وماذا بخصوص الأوراق الَّتي خبَّأها أبي، هل تعرف مكانها؟

ـ لو كنت أعرف مكانها لما دخلت السِّجن بتهمة باطلة. لكنَّ والدك خبَّأها قبل أن يتزوَّج، أي: عندما كانت له علاقة طيِّبة مع جدِّك.

(١٩)

جلس أمير في تلك اللَّيلة المظلمة على فراشه، وسط غرفته المحاطة بالقبور، يتأمَّل لحظات الصَّمت الَّتي تخترقها أصوات خفيفة للرِّياح. غرفته الصَّغيرة تتَّسم بالهدوء والأضواء الخافتة، تراوده الذِّكريات كظلال من الماضي وتطارده، وكل حقيقة كُشفت كانت كمرايا تعكس صورة غير مألوفة لذاته. يمسك طيَّات فراشه بقوَّة، كأنَّه يحاول أن يمسك نفسه في عالم مليء بصدمات قاتلة، رغم وجوده في مكان يعكس النِّهاية! لكن نبضات قلبه تصدح بقوَّة وتعلن أنَّ هناك بداية قادمة، بداية غامضة ربَّما تكون أسوأ من ماضٍ غامض، فهو يعرف أنَّ الإنسان يفضِّل تقبُّل مشاكله على البحث عن حلول لها، خوف أن يُصدم بمشاكل أخرى.

التفت إلى هاتفه من بعيد، والَّذي صدر منه صوت رسالة قادمة، رفع نظره نحو السَّاعة فعرف مصدر تلك الرِّسالة. الشَّيء الوحيد الَّذي يخفِّف عنه ثقل اليوم هو وجود مريم؛ لأنَّ الرُّوح تستظل بالطُّمأنينة حينما تجد بجوارها قلباً يخاف معها. فتح الهاتف، وقبل أن يتَّصل بها أخذ نفساً عميقاً، حيَّاها مثل كلِّ مرَّة؛ لأنَّه لا يريد أن يظهر ضعفه. كان متناقضاً جدّاً، لدرجة أنَّه يحتاج لقوَّة كبيرة لكي يعترف بضعفه، لكنَّها كشفته.

ـ أخبرني، ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ أمير! أخبرني ما بك؟

اختفت الابتسامة المصطنعة من على وجهه، ثمَّ جلس على السَّرير يفرك جبينه بيده الأخرى، وقال لها:

ـ لقد عرفت من أكون، وابن من، وحفيد من، ومن هي أمّي، ولِمَ أنا هنا.

ابتلعت ريقها بخوف، وأبعدت طلاء أظافرها، ثمَّ نهضت من سريرها وسألته بشفاه ترتعش:

ـ ماذا... ماذا حصل؟

ـ اليوم جاءني شخص اسمه نديم الجفَّار، كان زميلاً لأبي. هل تعلمين يا مريم ماذا قال! قال: إنَّ أبي قُتل على يد شخص اسمهُ الطَّبيب ناصر محمَّد، زميلهم في العمل.

عندما وصلت كلمات أمير إلى أذنيها عبر الهاتف، شعرت مريم كما لو أنَّ الأرض قد تحرَّكت تحت قدميها، وأنَّ جدران الواقع تنهار حولها.

ـ قُتل؟ والدك قُتل على يد الطَّبيب ناصر محمَّد!

ـ نعم. وهل هو شخصيَّة معروفة؟ أتعرفينه؟

ـ لا، لا... لا أعرفه. أكمل.

فأكمل لها مختصراً القصَّة. وكلَّما تقدَّم في الكلام، أحسّت بالغثيان، فكيف يمكن لعمِّها أن يكون قاتلاً! وكيف يمكن أن يخبرها قصَّة أخرى

لم يذكر فيها القتل! لا تنكر أنَّها كانت تعتبره حارساً لرغباتها الجشعة، وتعرف جيِّداً أنَّها كانت تلهث وراء الثَّروة، ولكن ليس بذلك الثَّمن البشع الَّذي يتضمَّن جريمة قتل! فكل ما تتذكَّره من مساء ذلك اليوم حينما أخبرها عمّها أنَّها سوف تصبح من الأثرياء، فقط عليها استدراج شاب يدعى أميراً إلى خارج المقبرة. وعندما سألته عن السَّبب، أخرج لها رسالة قديمة، وقال لها: إنَّه قد جمع ثروة كبيرة بطريقة غير شرعيَّة مع والد ذلك الشَّاب، وأنَّ رجلاً ثالثاً يدعى نديم الجفَّار أراد أن يستولي عليها، لكنَّه فشل وتمَّت محاكمته وإيداعه في السِّجن بعد قتل الطَّبيب رشيد، وإنَّ ذلك الشَّاب هو دليلنا نحو الثَّروة، وإن وصل السَّجين إليه قبلنا فعندها نستخدم الخطَّة الثَّانية؛ لأنَّ هنالك أوراقاً مهمَّة لا يجب أن تكون بين يديه.

ـ مريم! هل ما زلتِ هنا؟ مريم؟ ربَّما الإنترنت ضعيف. مريم، أتسمعينني؟

ـ أسمعك.

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ نعم... نعم. أكمل.

ـ أكملت.

ـ حسناً، وماذا ستفعل؟

ـ لا أعرف، أنا متحيِّر.

في تلك الأثناء طُرق باب غرفتها، فاضطرّت لإغلاق الهاتف وفتح الباب. كان وجه عمّها يحمل ملامح الغضب الَّتي يحاول إخفاءها:

(وداد، تعالي إلى غرفة الاستقبال).

نزل السُّلَّم أمامها، وعندما جلس احتاج لأكثر من دقيقة حتَّى قال بصوته الأجش: (لقد خرج السَّجين من السِّجن).

ثمَّ اعتدل بجلسته وشابك أصابع يديه، وكرَّر: (لقد خرج من السِّجن).

ارتسم الخوف على وجهها، مع تساؤل غزا تفكيرها عن الشَّيء الَّذي سيأتي بعد هذا الخبر، فحاولت فهم ما يخطِّط له:

ـ وماذا سنفعل؟

ـ أخبرتكِ سابقاً، لا يجب أن تقع الأوراق بيد أحد! تلك الأوراق تحتوي إثباتات حول جمعنا أنا وصديقي رشيد لتلك الثَّروة المخبَّأة.

ـ وما الَّذي يثبت أنَّ ذلك الشَّاب يعرف مكان الأوراق والنُّقود؟

انزعج من سؤالها، وبان ذلك الانزعاج على صوته الَّذي ارتفع، حيث قال لها:

ـ ليس لديَّ الوقت لأشرح لكِ، فقط نفِّذي. أريدكِ أن تستدرجي أميراً خارج المقبرة.

ـ لِمَ؟

ـ لتنفيذ الخطَّة الثَّانية.

وقعت كلمات عمّها كالصَّاعقة على أذنيها. كانت تنظر إليه بعيون مليئة بالهلع، فانعكست ردَّة فعلها على وجهها بشكل واضح، وراحت تتنفَّس بصعوبة وكأنَّ الهواء قد غاب عنها، فقد فهمت أنَّ عمّها يحمل في قلبه بجدِّيَّة نيَّة قتل أمير. قالت، وهي تفرك أصابع يدها بقوَّة:

ـ تريد... تريد أن تقتل أمير؟

نظر إليها والشَّك بدأ يدخل قلبه، وقال ببرود:

ـ نعم! هل لديكِ اعتراض؟

ـ لا، لكن ليس له أيُّ ذنب.

ـ حياتي أهم من التَّفكير بأن يكون له ذنب أم لا.

أخذت نفساً عميقاً، وحاولت أن تسيطر على ضربات قلبها وارتعاش جسدها. نجحت في ذلك، لكنَّها فشلت في السَّيطرة على دمعة مثل حبَّة المطر سقطت على وجنتيها، الأمر الَّذي أكَّد شكوك عمّها، الَّذي انتفض وقال لها بصوت عالٍ: (هذا ما كنت أخاف منه! أعطني هاتفكِ، ولن تخرجي من البيت حتَّى إكمال المهمَّة. أيُّ خطأ وقلَّة حذر سوف يهدم ما بنيته خلال ثلاثين سنة، وأنا غير مستعد لذلك).

وقف واتَّجه نحوها ومدَّ يده ليأخذ هاتفها. مسحت دموعها وهي خائفة؛ لأنَّها تعلم أنَّ الَّذي يقف أمامها قاتل. في تلك اللَّحظات الَّتي يظهر فيها الوجه الآخر للألم، حيث لا تكون قرابة الدَّم سوى عذاب آخر، والعلاقات الأسريَّة تصطدم بالدَّناءة والغدر، فتتحوَّل صلات الرّحم إلى بؤرة للتَّمزيق، وتذوب الأواصر في بحور الإساءة والخيبة، وربَّما يكون الأقربون هم أوَّل من ينتهك حدود الرَّحمة والأخلاق.

ـ أعطني هاتفكِ. آسف لهذا، لكن لهذه الفترة فقط.

ـ هاتفي في غرفتي.

ـ أحضريه.

ـ حسناً.

عندما وصلت لهاتفها، وجدت مكالمات كثيرة ورسائل عديدة من أمير، آخرها كان رسالة يقول فيها: (مريم... كان يوماً ثقيلاً عليَّ، يوماً أحزنني جدّاً. سأذهب للنَّوم، وسأنتظركِ غداً لتأتي؛ لأنَّ اللَّحظة الَّتي أراكِ فيها كأنَّها لحظة سحريَّة في قلب ليل لا يشبهه ليل، حيث تنبعث أحلامي إلى سماء الواقع وتستلقي كنجوم زاهية في فضاء الإحساس، أشعر أنَّ روحي تتمايل في حلم هادئ على أوتار لحظات لا أريد لها المرور، ليبقى عطر ذلك الحُلم في منام واقعي كزهرة تتفتَّح بأجمل ألوانها، أصبحتِ حاضرة في خيالي، مثل قصَّة شعريَّة غنَّتها الرِّياح في ليلة شتويَّة، فعلى ضفاف قلبي وجدتكِ، وكأنَّ الأموات من حولي عرفوا اسمكِ، ازدادت أثمانكِ مع مرور الأيَّام، وأصبحتِ جزءاً لا يتجزَّأ من وجودي. ليكن العالم حنوناً عليكِ دوماً، فأنتِ الضِّياء في أيَّامي وسروري، وزهرة لا تذبل داخلي. محبَّتكِ أعطتني أماناً لا يُضاهى. أنتِ ربيع لا يموت، وضحكات لا تمحى. تصبحين على خير).

رغم أنَّ عمّها كان خلفها، لكنَّ سيل من الدُّموع الحارَّة انهمر على وجنتيها، فشدَّت هاتفها إلى صدرها. الكلمات في تلك الرِّسالة لم تكن مصدراً للسُّرور، بل كانت سهماً انطلق نحو عنق الضَّمير وانغمس في أعماق قلبها. كيف فكَّرت أن تؤذيه، وهو الَّذي رمته الأقدار وحيداً؟! ماذا سيحدث له إن عرف الحقيقة؟ أو ربَّما لن يعرفها؛ لأنَّ عمّها كان مُصرّاً على تنفيذ خطَّته.

(٢٠)

قرَّر أمير في ذلك الصَّباح أن يترك غرفته في المقبرة وينتقل إلى مكتب الدَّفن الَّذي كان يعمل فيه جدّه. كان هذا أحد القرارات الَّتي أبعدت النَّوم عنه. كان يفكِّر بأن يتَّخذ خطوة ثانية، وهي إيجاد عمَّال يقومون بالدَّفن، وبعد كل هذا سيبحث عن عائلة والده في المدينة، رغم أنَّ والده كان الوحيد لجدِّه كما قال له الطَّبيب نديم، لكنَّه يريد أن يعرف المزيد.

اتَّجه إلى طه وهو يمشي بخطواتٍ سريعة، وكأنَّ الأرض تحت قدميه تشكِّل خريطة لأفكاره المتشابكة، تتسارع خطواته مع كلِّ نبض، وعيونه تعكس تفكيراً عميقاً يتجوَّل بين أفق الأمور، فيبدو وكأنَّه يبحث عن إجابات في تفاصيل الأرض الَّتي يمشي عليها.

يضع يديه في جيوبه ليخفي الارتباك الَّذي يختلط بالحماس، الحماس الَّذي يشعل قلبه المتعب، لكنَّهُ كان حماساً من نوع آخر، حماساً لاستعادة ذاته من بين ركام الخيبة.

وجد طه أمامه ينتظره وبيده علبة دواء فارغة، أخذها أمير منه والتقط لها صورة بهاتفه؛ لأنَّه يريد شراء واحدة له بعد أن كان الحاج طعمة يتكفَّل بكلِّ العلاجات اللَّازمة لحالة طه.

تقدَّما باتِّجاه طريق الرَّمل الَّذي يرتبط عند آخره بطريق مُعبَّد، وبعد صمت لا يُسمع منهُ سوى صوت الأحذية الَّتي تضغط على الحصى النَّاعم المختلط بحبَّات الرَّمل، أشعل أمير سيجارته وسأل طه:

ـ أيُّهما أصعب، الغياب الَّذي يفتقد فيه القلب شخصاً ما، أم الغياب الَّذي يفتقد فيه القلب ذاته؟

أطلق طه حسرة، ثمَّ نظر إلى الأفق وأجاب:

ـ لعلَّ الجواب يكمن في مدى الألم الَّذي ينثره الغياب في كلتيهما.

أراد أمير أن يسأله سؤالاً كان يشغل تفكيره، لكنَّ صوتاً مفاجئاً من الخلف اخترق الهدوء وأثار فزعهما: (أمير؟).

توقَّفا، وحينما نظرا كان يسير نحوهما بثبات شاب متأنِّق يخطو نحوهم بثقة، يضع يداً في جيب بنطاله النِّيلي والأخرى الَّتي تتدلَّى تعكس أشعَّة الشَّمس من ساعة فضِّيَّة يرتديها.

ـ أنت أمير؟

ـ نعم. من أنت؟

ـ رأيتك قبل يومين، دلَّتني عليك عجوز كانت هنا. كنت أريد التَّحدُّث معك، لكنِّي رأيتك مشغولاً بالدَّفن.

ـ تفضَّل، ما هي حاجتك؟

أخرج هاتفه من جيبه، وبدأ يحرِّك إبهامه عليه كأنَّه يريد الوصول إلى شيء ما. وعندما وصل له، رفع رأسه وقال: (أمير رشيد طعمة).

نظر أمير إلى طه، ثمَّ إليه، وأجابه: (نعم! من أنت؟).

تقدَّم نحوه وناوله الهاتف، وقال له: (اقرأ).

أمسك أمير الهاتف، وقرأ بصوت مسموع: (إلى زوجتي، أو إلى الطَّبيب نديم الجفَّار).

ثمَّ رفع رأسه نحو الشَّاب، وقال له:

ـ ما هذا؟

ـ هذه صورة لمغلَّف رسالة ممزَّق، يمكنك التَّمرير لقراءة الرِّسالة الَّتي بداخله، في الصُّورة المجاورة.

فعل أمير ذلك على عجالة، وقرأ: (لا يمكنني التَّنبُّؤ بما يحصل، لكنِّي أملك الأدلَّة على أنَّ هناك من يريد قتلي، ذلك ما وصلني. الآن أنا متَّجه إلى مطار بغداد الدُّولي، أملاً بالوصول إلى ألمانيا. إنَّ الأخبار سيِّئة جدّاً، كل شيء يشير إلى أنَّ القتال في النَّجف سيندلع قريباً. هذهِ رسالتي أكتبها إلى زوجتي أو إلى الطَّبيب نديم الجفَّار، لأنِّي أعرف أنَّ أبي لن يقرأها. إن نجوت سأمزِّقها، وإن لم أنجُ فاعلموا أنِّي حاولت أن أبقى نقيّاً، وفي هذا البلد عليك أن تدفع ثمن نقائك. لقد قمت بدفن كل شيء في مكان ما، وأعطيته رمزاً عبارة عن رقم، ودليل ذلك المكان تجدونه على جسد شخص هو أعز عليَّ من نفسي. لا أستطيع التَّوضيح أكثر. فقط عليكم أن تخبروا أميراً بأنِّي كُنت رجلاً صالحاً، ولم تُلطِّخني متغيِّرات الزَّمان، وهذا ما أتمنَّى أن يتعلَّمه. وعليكم أن تخبروه بأنِّي أحبّه كثيراً... الطَّبيب/ رشيد طعمة عبَّاس... النَّجف الأشرف ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٤).

شعر بالحاجة إلى استيعاب كل تلك الأحاسيس المتناقضة، حيث تداخلت مشاعر الحنين والفقد والقهر، لتشكِّل شعوراً غريباً داخله، فالكلمات كأنَّها فتحت نافذة للماضي، تركت في قلبه آثاراً عميقة من الغموض والأسى ينبعث من عدم فهمه للأسباب، ورغبته في الحصول

على إجابات تضيء عتمة ظلامه. أحسَّ بأنَّه كالفنجان الَّذي يهرب بسرعة من يدٍ إلى أخرى.

أعطاه الهاتف، وطلب منه أن يصوِّر تلك الرِّسالة بهاتفه، وعندما فعل ذلك أخذ الشَّاب هاتفه وقال:

ـ أنا لا أعرف التَّفاصيل، لكنِّي أؤكِّد لك أنَّك في خطر.

ـ في خطر! كيف؟

ـ الطَّبيب ناصر محمَّد يريدك بأي ثمن.

ـ وهل يعرفني؟

ـ نعم، لديه معلومات كافية عنك من خلال وداد.

ـ وداد! من هي وداد؟

سكت الشَّاب، ونظر في عينَي أمير لوهلة، ثمَّ قال له:

ـ وداد الَّتي هي مريم!

ـ مريم! ماذا تقصد؟

ـ اسمع، أنا اسمي عصام، كنت قريباً سأخطب وداد، لكنَّها بقيت ترفض وتؤجِّل. وفي ذلك اليوم سمعتها يتحدَّثان هي وعمّها الطَّبيب ناصر محمَّد حولك، الأمر الَّذي جعلني أتبعها. فهمت حينها أنَّها كانت تريد استدراجك خارج المقبرة، ولا أعرف لماذا، وعندما وصلت إلى المقبرة اكتشفت أنَّها انتحلت شخصيَّة كاتبة وأسمت نفسها مريمَ. في الحقيقة هي لا تعلم أنِّي كشفتها، لكن إذا كنت تريد إخبارها فلا أمانع، فلم تعُد تهمّني.

ـ مريم؟ هل... هل أنت متأكِّد؟

ـ تماماً.

فتح هاتفه مرَّة أخرى وبحث عن صورة تجمعه مع الطَّبيب محمَّد ناصر ووداد وبعض كادر المستشفى، وقدَّمها لأمير الَّذي اتسعت عيناه وبقي فمه نصف مفتوح، حتَّى أنَّه لم يتكلَّم عندما ودَّعه عصام ورحل، فقد بقي واقفاً ينظر أمامه نحو اللَّا شيء.

كأنَّ الحزن يمتطي ظهر السَّاعة، يسير في طيَّات الدَّقائق ويتجاهل العالم من حوله، في حين يبقى الزَّمان يدور بهِ بلا رحمة، وروحه تدور في دائرة المشاعر المؤذية، حيث السَّعادة تتلاشى وتضيع في أروقة اللَّحظات العابرة.

جلس على الجزء المُهدَّم من سور المقبرة حيث الصُّخور المتراكمة، حوَّط رأسه بيديه يريد أن يحمل وزن أفكاره، شعر وكأنَّه قد تجوَّل في حقل الجهد، زرع الأحلام ورعاها بحنان، لكنَّه أدرك فجأة أنَّ تلك الأمنيات قد كُسِرت تحت وزن أمله، وأنَّ النَّواحي اللَّيِّنة للواقع كانت أقسى من الصُّخور الجامدة.

حاول طه تهدئته، لكنَّه كان يغلي من الدَّاخل. وضع يده على كتفه وقال له: (اهدأ).

وقف أمير وأخذ يدور في المكان، وقد برزت عروق رقبته. قال بغضب، وهو يشمِّر عن ساعديه: (أريد شخصاً صادقاً، شخصاً واحداً. لا أعني أن يصدق في حديث عابر، أو أن يصدق في كلامه. لا، لا، أريد

شخصاً يكون صادقاً في مشاعره، نقيّاً، شخصاً يفهم أنَّ من بين السَّواد الَّذي ملأتني به الأيَّام، اخترت أن أعطيه مشاعر نقيَّة لن تخرج بسهولة، شخصاً لا يلطِّخ تلك المشاعر بعدم تقدير. أنت تفهم، أليس كذلك؟ في هذا المجتمع لا يقتلونك بالرَّصاص، بل بأفعال دنيئة تُسدَّد نحو قلبك. يتركونك تنزف حسرة، ثمَّ تنزف وتنزف حتَّى تصاب بداء انعدام الثِّقة، ومن ثمَّ تموت قهراً، نعم، تموت قهراً).

وعندما أنهى تلك الكلمات، انخفض صوته وجلس على صخرة قريبة وهو يضع رأسه بين يديه، وقال بصوت يحمل الخيبة: (الحزن وحده مؤذٍ، لكنَّه إن حلَّ محل السَّعادة يصبح لا يُطاق! ليس شيئاً عاديّاً أن يُستبدل شعور الأمل بالخيبة، كأنَّك تريد فتح صندوق توقَّعت بداخله كنزاً، لكنَّك تتفاجأ بمجموعة جرذان. كُنت آمل خيراً منها يا طه، آمل خيراً!). قالها وهو يضرب بيده على حجر كان بالقرب منه.

ثمَّ هدأ وقال: (أكثر ما يحُطِّم قلبي أنِّي لم أفعل شيئاً خاطئاً ليقدِّموا لي الحزن على طبق نقاء مُزيَّف).

وقف بتثاقل ومسح عرق جبينه، ثمَّ قال بثبات: (أعرف لِمَن سوف أذهب، أعرف أين أرتاح وأين أشكو).

مشى قليلاً، ثمَّ أوقف سيَّارة أجرة وذهب مع طه. دخل وسط ذلك الفضاء الدِّيني بخشوع، وكأنَّه يسمع همس القلوب وصلوات النُّفوس الَّتي تنبعث من حوله. وقف هناك، متجذِّراً كشجرة باسقة في أرض يحبّها، تعانق أغصانها السَّماء بخشوع. تدفَّق هواء بارد لفح وجهه وحمل

معه رائحة ذكيَّة تلفُّ المكان، بينما تسلَّلت السَّكينة إلى قلبه، وصوت المصلِّين تردَّد في أذنيه وأشعره بأنَّ دويَّ الأصوات من ذلك النَّوع كان أجمل من كلِّ الهدوء الَّذي عاشه. بدأت دقَّات قلبه تتسارع وعيناه تراقبان المكان، أحسّ أنَّه عبر عتبات زمنيَّة إلى عالم خاص من الوقار، انساب الخشوع في عروقه كنهر من نور، يغسل كل ما علق به من غبار الدُّنيا. كان قويّاً ثابتاً، إلى أن وجَّه نظره نحو شبَّاك القبر الشَّريف، وقال: (السَّلام عليك يا علي بن أبي طالب). خرجت عبرة صدره وانهار بالبكاء. حاول جاهداً أن يسيطر على مشاعره، وأن يكبح جماح النَّحيب الَّذي بدأ يتسلَّل إلى صدره، لكنَّ المشاعر الَّتي اجتاحته كانت أقوى من أيِّ إرادة. وضع يديه على وجهه، في محاولة يائسة لإخفاء دموعه، لحجب تلك العبرة الَّتي خانت قوَّته وكشفت عن ضعفه الإنساني. تلاشت كل أقنعة الثَّبات وبقيت الرُّوح عارية، تبحث عن السّلوان في ذلك المكان. وفي الصَّمت الَّذي أعقب ذلك النَّحيب، كان هناك نوع من السَّكينة الَّتي بدأت تخيِّم على روحه، كأنَّ دموعه قد غسلت كل الألم واليأس، وتركته متجدِّداً، محمَّلاً بإيمان أعمق وأقوى. في تلك اللَّحظات من الضّعف، وجد قوَّته الحقيقيَّة، فكان كُل ما يحتاجهُ هو ذلك الانهيار، ذلك النَّوع من البكاء المُرّ الَّذي يجعلهُ قويّاً.

كان طه خلفه ينظر إليه بحسرة. وبعد أن أكملا صلاتهما أرادا الخروج، لكنَّ أميراً توقَّف فجأة وفتح عينيه اللَّتين احمرَّتا. التفت له طه وقال:

ـ ما بك؟ لِمَ توقَّفت؟

ـ طه، انظر هناك!

ـ أين؟

ـ هناك، طه، هناك! بالقرب من مدخل باب الطّوسي!

قال له طه بصوت مرتجف:

ـ نعم، إنَّهُ هو!

أراد أمير أن يشتمه، لكن تذكَّر المكان الَّذي يقف بهِ:

ـ سليم الـ...

أخذ نفساً عميقاً وانطلق نحوه، ويتبعه طه.

في زاوية من ذلك المكان، حيث الظِّلال تتلاقى مع النُّور، كان سليم يجلس وعلى هيئته ظهرت آثار أيَّام قاسية، جسده الَّذي بدا كغصن يابس يتحدَّى العواصف، كان يرتجف ليس من برد المكان، بل من حرارة الرُّوح الَّتي تفور بداخله، روح لم تخبُ نيرانها رغم نحوله. كانت يده الَّتي لفَّها بضماد ترتفع بتثاقل وتنزل برهبة، كأنَّها تحمل ثقل الدُّعاء أكثر من ثقل الألم. اندفع أمير بخطى ثائرة نحوه، تُحرِّكه عاصفة من الغضب وتستحثُّه نيران الاستياء، وفي قلبه سؤال يتردَّد صداه في أعماقه، يبحث عن إجابات قد تهدِّئ من غليانه.

وعندما وصل إليه ووقف أمامه، رفع سليم نظره نحوه، ووقفت الكلمات حبيسة في حلق أمير، تجمَّدت قدماه على الأرض، وجده جسداً ذابلاً كورقة خريف تائهة في الرِّياح، وتحت عينيه هالات كأنَّها سحب ماطرة. التَّغيُّر كان صادماً، كأنَّ الزَّمن قد لفَّ سليماً بأشواكه، فغيَّر ملامحه وأحنى ظهره.

قال سليم، بشفاه ذابلة متشقِّقة:

ـ أمير، طه، كيف حالكما؟

ـ سليم السَّارق، كيف تجرؤ على التَّواجد في هذا المكان! سارق وخائن...

وعندما أراد طه الحد من اندفاع أمير، أجابه سليم:

ـ أريد منكما أن تسمعاني قليلاً.

ـ نسمعك؟ ماذا تريد أن تقول؟ كُنت محتاجاً لتسرق؟ وممَّن؟ من القبر!

ـ نعم، كُنت محتاجاً. والآن انظر ماذا حصل لي.

ـ ماذا حصل؟

ـ قلت لكما فقط اجلسا، أقسم عليكما...

جلس الثَّلاثة على الأرض مكوِّنين حلقة، وبدأ سليم بالكلام:

ـ لم أكن أنوي السَّرقة، ولن أبرِّر لنفسي، لقد فعلتها بدافع شيطاني، أنا أعترف بذلك.

أطرق برأسه وسكت برهة، ثمَّ أكمل:

ـ عندما ذهبت لبيع ذلك الذَّهب الَّذي لم يكن ثمنه شيئاً يُذكر، كنت أشعر بالنَّدم، لكنِّي لم أستطع البوح بذلك، وكان التَّفكير يشغلني لدرجة أنِّي نسيت جرح إصبعي الَّذي بدأ يتورَّم يوماً بعد يوم؛ لأنَّ الجرح كان ملوَّثاً تماماً. لم أنم اللَّيل، ولم أهنأ براحة النَّهار بسبب الألم. وعندما ذهبت إلى الطَّبيب، أخبرني بعد عدَّة مرَّات أنَّ العلاج قد فشل،

ويجب أن يبتر الإصبع. لم أستمع له، وأخذت أبحث عن أطبَّاء آخرين، وكذلك ذهبت لأشخاص يعالجون بالأعشاب. بعت كل شيء في بيتي حتَّى أتخلَّص من الألم، وحينما استسلمت لرأي الطَّبيب وقرَّرت العودة إليه، أخبرني أنِّي تأخَّرت وأنَّ العدوى الفطريَّة أدَّت إلى تلف الأنسجة، ولذلك عليهم قطع الكف بالكامل.

رفع يده الَّتي لُفَّت بضماد، وطه وأمير ينظران لها بتعجُّب. بادره أمير بسؤال فضح تعاطفه من خلال تغيُّر نبرة صوته:

ـ قطع كفّك؟

ـ نعم.

وحينما أطرق برأسه خجلاً، وقف أمير وقال له:

ـ لا يشفي غليلي شيء سوى لكمة على فمك، لكنِّي سأتركك لأجل حبّ الله لك.

ـ حب الله لي! كيف؟

ـ لم يجعلك تهنأ، وعاقبك حتَّى يردّك إليه، عاقبك الآن حتَّى يجنِّبك عقاب الآخرة. انظر كم أنت دنيء نفس، كم أنت سيئ، ورغم ذلك حبُّ الله لك كبير.

تركه أمير ورحل، ومن خلفه طه. لكنَّ سليماً بقي ينظر إليهما وكلمات أمير جعلته يرتعش. الصَّمت والصَّدمة التفَّا حوله لوقت قصير، ثمَّ انهار باكياً لدرجة أنَّ جميع من حوله انتبهوا له.

(٢١)

في غرفتها مغلقة الأبواب، كانت وداد كطائر حبيس، تدور في أرجائها وتنظر من نافذتها الصَّغيرة إلى العالم الخارجي الَّذي أصبح بعيد المنال في ذلك اليوم؛ فقد سلب منها عمّها جناحيها، هاتفها، الخيط الواهي الَّذي كان يربطها بأمير. تشعر ـ وهي داخل هذه الجدران الأربعة ـ بكلِّ لحظة تمرُّ تزداد ثقلاً. تحمل في طيَّاتها وطأة العزلة والقلق، وهي تعلم أنَّ عمّها ينسج في الخفاء خيوط خطَّته القاتمة، فكلَّما تعبت من المشي في تلك المساحة الصَّغيرة جلست على السَّرير وشابكت يديها، وهي تحوك من خوفها دعاءً صامتاً ترسله إلى السَّماء، تشعر أنَّ الوقت يتسرَّب من بين أصابعها كالرِّمال؛ كل ثانية تمرُّ تعني الفارق بين الحياة والموت لأمير. تبحث في ذهنها عن أيِّ فكرة، أيِّ وسيلة ممكنة للوصول إلى هاتفها أو لإيجاد طريقة للخروج من سجنها. بدأت باستكشاف غرفتها بعينين جديدتين، تبحث عن أيِّ ثغرة تجعلها تحقِّق غايتها.

في ذلك النَّهار الَّذي ارتدى ثوب الصَّفاء، تحت سماء لا تعكِّر صفوها سحابة، بدت مقبرة وادي السَّلام كمسرح ينتظر وقوع مأساة معدَّة سلفاً، وخطَّة محكمة، كل تفصيل فيها مدروس بعناية فائقة، لا يترك مجالاً للخطأ أو الرَّحمة. بينما انحرفت السَّيَّارتان ببطء نحو مدخل المقبرة، كان الصَّمت يسود المكان، صمت مقدَّس تخترقه فقط خطوات زائرين قلائل، ولكن للطَّبيب ناصر ورفاقه مهمَّة تتطلَّب قطع هذا الصَّمت بفعل مروِّع.

أوقفوا سيَّارتهم بعيداً عن المنطقة المنشودة، وشرعوا في التَّوغُّل بين القبور بخطى حذرة، كل حركة محسوبة وكل نظرة مليئة بالحذر. كانوا يبحثون عن المكان المثالي، زاوية يمكن من خلالها مراقبة المدخل دون أن يتم اكتشافهم، عيونهم تتفحَّص المحيط بيقظة، وأيديهم مستعدَّة لتنفيذ ما خطَّطوا له. كل ثانية تمرُّ تزيد من حدَّة التَّوتُّر. ومع كل نسمة هواء تتحرَّك بين القبور، كانت تبدو وكأنَّها تحمل أنفاس أمير الأخيرة في هذا المكان، الَّذي كان شاهداً على نهايات كثيرة. وقف الطَّبيب ناصر وسط تلك المجموعة متحفِّزاً، عيناه تخفيان وراء بريقها تصميماً وقراراً لا مفرَّ منه. كان يعلم أنَّ أيَّ خطأ سيحدث في هذه اللَّحظات سيغيِّر مجرى حياته إلى الأبد، لكنَّه كان عازماً على المضي قدماً، مدفوعاً بمبرّرات شكَّلها في ذهنه لتبرير فعلته. كان عليهم أن ينتظروا قدومه، بعدما أخبرتهم عجوزٌ صادفوها بذلك المكان بأنَّه قد خرج من المقبرة.

كانت وداد ـ في الوقت ذاته ـ تدور بصورة هستيريَّة داخل غرفتها، يعتريها توتُّر واضح ينعكس في كلِّ حركة ونظرة. كانت تتحرَّك بلا هدف محدَّد، من زاوية إلى أخرى، تعصر أصابعها بقوَّة، وتلطم وجهها، كأنَّها تحاول بهذه الطَّريقة أن توقظ نفسها من كابوس، لكنَّ الواقع كان أقسى من أيِّ حلم مزعج.

رغم ذلك، فإنَّ اليأس لم يُطِلْ مكوثه في قلبها؛ فالحب الَّذي تكنّه لأمير، والرَّغبة العارمة في إنقاذه، غمرتها بموجة من الشَّجاعة لم تعهدها من قبل.

في لحظة من اللَّحظات، بدأت تلك الفكرة تتشكَّل في ذهنها، فكرة جريئة ومحفوفة بالمخاطر، لكنَّها كانت الفرصة الوحيدة لها لطلب النَّجدة.

مع تسارع دقَّات قلبها، نهضت وداد وتوجَّهت نحو طاولة تحت النَّافذة، أمسكت مزهريَّة كانت عليها وضربتها بالحاجز الزُّجاجي الَّذي يفصلها عن العالم الخارجي، بكلِّ ما أوتيت من قوَّة وبعزم لا يلين، استمرَّت بضرب زجاج النَّافذة رغم الدِّماء الَّتي بدأت تسيل من يدها. لكنَّها عندما تمكَّنت من كسر الزُّجاج، صاحت بصوت محمَّل بكلِّ قوَّتها على مَن في الشَّارع، تناديهم لينقذوها. كان صوتها يخترق الهواء، تتمنَّى فقط ألَّا تكون قد تأخَّرت على أمير، ذلك الشَّاب الَّذي خرج من الضَّريح المقدَّس ليتجوَّل مع طه لأوَّل مرَّة في المدينة القديمة. ذهب معه إلى سوق الحويش كما وعده، وابتاع الكتب الَّتي ملأت يدَي طه، أمَّا هو فكان قد قرَّر في الصَّباح عندما استيقظ أن يشتري ثياباً جديدة يرتديها حين تصل الإنسانة الَّتي وثق بها، لكنَّه عزف عن ذلك بعد أن عرف حقيقتها. أغمض عينيه وقال لطه: (حسناً، الآن، نحو المقبرة).

سارا لمسافة طويلة، كان طه يتكلَّم وأمير يفكِّر دون أن يسمع شيئاً، كان يفكِّر بما حدث، وكيف اكتشف كل تلك الأشياء خلال يومين. حاول إعادة كلمات تلك الرِّسالة الَّتي كتبها أبوه في رأسه، فأخرج هاتفه ليقرأها. أعاد النَّظر بها مرَّة ومرَّتين، وتوقَّف عند عبارة: (لقد قمت بدفن كل شيء في مكان ما، وأعطيته رمزاً عبارة عن رقم، ودليل ذلك

المكان تجدونه على جسد شخص هو أعز عليَّ من نفسي. لا أستطيع التَّوضيح أكثر).

رفع رأسه وهو يردِّد: (لقد قمت بدفن كل شيء... دليل المكان على جسد شخص...).

ردَّد تلك العبارة ثلاث مرَّات، ثمَّ سكت وتوقَّف في مكانه قليلاً، ومن ثمَّ هتف بعد ذلك الصَّمت: (وجدت المكان! نعم، وجدت المكان! هيَّا، علينا أن نسرع).

لم يفهم طه شيئاً، لكنَّه أطاع أمر صديقه الشَّاب ومشى خلفه بسرعة. وعندما دخلا الفرع المؤدِّي إلى منطقة الدَّفن الخاصَّة بهم، لم يكونا يعلمان أنَّ هنالك عيوناً تتربَّص بهما. أشار أحد الأشخاص إلى الطَّبيب ناصر، يخبره بوصولهما، ولكنَّ الطَّبيب رآهما قبل ذلك. أخرج مسدَّسه بهدوء شديد، لكنَّ الهواء الرَّاكد حمل صوت سحب زناد المسدَّس وهو يجهز للإطلاق، تلاه صمت مطبق. وبغريزة البقاء الَّتي تسكن كل كائن، شعر أمير بالخطر المحدق، فتسارعت دقَّات قلبه، وحادت نظراته يميناً ويساراً، في محاولة لرصد مكان الخطر. وأثناء ما كان يدور برأسه، انطلقت رصاصة من مسدَّس كاتم للصَّوت، سمع أزيزها في أذنيه. عرف وقتها أنَّ الرَّصاصة أخطأته، فانحنى وصرخ بطه لينحني، ثمَّ ركضا محاولين الابتعاد، الأمر الَّذي جعل الطَّبيب يركض خلفهما دون أن يرى جسديهما كاملين. لحظة سقوط الكتب من يدَي طه وتوقُّفه المفاجئ، كانت كفخٍّ يُرمى في ميدان القدر. وقف

فجأة، ولم يدرك أنَّه بذلك يرسم نفسه كهدف لقدر مظلم كان يكمن في يد الطَّبيب ناصر، الَّذي ظنَّ أنَّه رأس أمير. سمع أمير ارتطام جسد على الأرض، التفت وراءه، فرأى طه ممدَّداً بلا حراك. سقط فوق كتبه، وكان رأسه مصدراً لتلك الدِّماء الَّتي ملأت الأرض. ذلك الرَّجل الَّذي ملأ الحياة بهجة ومعرفة، الآن يحتضن الكتب الَّتي اشتراها وهو مُمدَّد بصمت أبدي.

وقف أمير مشدوهاً، روحه تتمزَّق ألماً وذهولاً، خطاه المتثاقلة حملته نحو القبور القريبة، حيث جرَّ نفسه وانهار بجانبها، جسده يرتجف وقلبه ينزف أسى وهو يتَّكئ على القبر، كأنَّه يبحث عن سند في هذا الواقع القاسي الَّذي ابتلع صديقه العزيز في لحظة غادرة. أخرج من جيب بنطاله شريط الدَّواء الَّذي اشتراه له، وبقي يقلِّب نظره بينه وبين طه. وفي تلك الأثناء، سمع خطى تتقدَّم نحوه، فظهر الطَّبيب ناصر محمَّد يحمل مسدَّسه وهو متقطِّع الأنفاس، ووجَّه فوَّهته من بعيد نحو أمير، وقال له: (كان عليَّ أن أقتلك طفلاً).

نظر إليه أمير بلا مبالاة وبملامح باردة، وتمدَّدت شفتاه بابتسامة، ربَّما ابتسامة يأس أو رضا، رضا عن حياته رغم أنَّها تحوَّلت إلى مأساة، عاش طوال عمره بين الموتى وأيَّام قليلة بين الأحياء، وعرف أنَّ الأرواح الشِّرِّيرة كانت تسكن أجساد الأحياء لا قبور الأموات كما في القصص.

وعندما أراد أن يضغط على الزِّناد، وهو يصوِّب سلاحه نحو جبين

أمير، صرخ صوت من بعيد عليه، وتحوَّل صوت الصُّراخ إلى صوت أقدام كثيرة تركض باتِّجاهه، وفوَّهات بنادق تصوَّب نحوه، ويصرخون بارتباك: (ارمِ سلاحك. ارمِ السِّلاح).

قوَّات من الجيش وأخرى من الأمن الوطني ملأت المكان، رموه على الأرض بعنف، ثمَّ سحبوا يديه إلى الخلف وقيَّدوه، وأخذوه مع رفاقه نحو سيَّارات كثيرة وقفت بعيداً لعدم قدرتها على التَّوغُّل بين القبور. مرَّت نصف ساعة عندما أنهوا إجراءات رفع جثَّة طه من الأرض، كان أمير واقفاً مُحمر العينين، سار خلفهم نحو سيَّارات الشُّرطة حيث تجمهر العديد من الأشخاص حول المكان. وعندما كان يسير خلفهم، وكان طه محمولاً بمسافة أمامه، شاهد أحد أبواب السَّيَّارة قد فُتح وانطلقت منه فتاة باتِّجاه طه، رفعت الغطاء عن وجهه ولطمت وجهها، ثمَّ صرخت: (أمير! أين أمير؟).

أحد أفراد الجيش أشار إليه، حيث كان أمير يشاهدها دون اكتراث، مرَّ بقربها وهو محمَّل بجبال من الهمّ، نظر إليها وكانت عيناها متورِّمتان، تبكي بمرارة وهي تضع يدها الَّتي لفَّتها بضماد على فمها، لكنَّ أمير ـ الَّذي سقطت من عينيه دمعة كبيرة ـ أشاح بنظره عنها وأكمل سيره.

الخاتمة

مرَّت سبعة أيَّام، كان أمير يشعر فيها أنَّه يحمل قلباً ثقيلاً، كأنَّه كرة حديديَّة، ويعتقد أنَّ العالم بأسره يسير على هذا الوزن. دخل غرفة طه ليرمي وداعه الأخير على جدرانها، واتَّجه نحو حزمة أوراق مبعثرة بسبب الهواء الَّذي يدخل من نافذة زجاجها المحطَّم، أخذ يقلِّب بها، وصادفته ورقة عنوانها (غزل إلى مريم)، تذكَّر حين طلب منهُ أن يكتب له تلك الكلمات، سحبها من بين الأوراق ووضعها في جيبه، لكن هنالك ورقة شدَّت انتباهه، كتب عليها كلمات مستخدماً قلم حبرهُ أزرق، وبخطِّه المميَّز كتب: (سنبقى تواريخ مُعلَّقة على شواهد القبور. سنغدو ذكريات في مجالس عابرة. سنكون حسرة في قلوب مُحبِّينا. سنتحوَّل إلى دمعة في عيون من يشتاقون لنا، وندماً في صدور من أوجعونا. ستتحرَّر أحزاننا عند الموت، لتطير على هيئة غربان ناعقة. وستصبح أمنياتنا فراشات تحلِّق فوق الرَّماد. ستُسلِّمنا الحياة موتى، وسوف يعمل الموت على إحيائنا من جديد. ستطير أرواحنا بلا أجنحة لتجوب سماوات الله، والوحدة الَّتي عشناها على هذهِ الأرض ستنتهي عنده. وعندما يأتي الحساب، سنسير في طوابير يملأها الرُّعب في تخيُّل المصير النِّهائي. لكنَّني سأقف أمام الله، ليس مُتحدِّياً بل مُحبّاً، وليس مُعاتباً بل شاكياً، أتكلَّم دون خوف؛ ليس لأنِّي لا أخاف الرَّب، بل واثقاً بأنَّ الخوف عنده وبين يديه ينتهي. سأشكو له أناساً تجرَّأت على الأذى،

وسوف أسأل من هناك بصوت مرتفع: مَن يزرع أشواك الحزن في قلوب الآخرين، كيف يأمل أن يستلقي على سرير الهدوء دون أن تحوم أطياف ذلك الألم في خياله؟!).

بقي أمير في صمت للحظة، ثمَّ أطلق حسرة طويلة، وعيناه تتجوَّلان في تلك الكلمات. أرجع الورقة فوق الحزمة وخرج نحو قبر طه، حيث وقف فوقه وهو ينقر بأظافره على القبر ويحدِّق فيه، ترنُّ في أذنيه كل كلمة تبادلاها، كل ضحكة شاركاها. في هذا العالم القاسي، حيث الحياة تُسلب برصاصة، أدرك أمير أنَّ كل لحظة قضاها مع طه كانت هبة لا تقدَّر بثمن. كان يفكِّر بما وصل إليه، حتَّى خرجت منه هذه الكلمات: (الطَّريق الَّذي سرتُ فيه ليس طريقي، والأصعب أنَّني اكتشفت كُل هذا عندما وصلت إلى نهايته).

رنَّ هاتفه، وكان المتَّصل أبا علي، ففتح مكبِّر الصَّوت ووضع الهاتف على قبر طه:

ـ بُني، غداً ظهراً موعدنا، تريد أن آتي لك إلى المقبرة أم إلى مكتب الدَّفن؟

ـ إلى المقبرة، عمّي، إلى المقبرة.

ثمَّ أغلق هاتفه وهو ينظر نحو مدِّ المقبرة الَّتي لا يحدّها بصر، وقال يحدِّث نفسه: (إلى المقبرة، إلى المقبرة... فهنالك شيء عليَّ فعله).

انطلق نحو مكتب الدَّفن مسرعاً، حيث دخله وأغلق الباب، وأخرج رزم أوراق قديمة، ومن بينها استخرج خريطة يتذكَّرها، قسّمت

الورقة حسب الاتِّجاهات الجغرافيَّة الأربعة، وكانت تحتوي أسفل كل اتِّجاه مربَّعات صغيرة. أغمض عينيه محاولاً تذكُّر العلامة الَّتي كُتبت على جسد جدّه الحاج طعمة، ولحسن الحظ لم ينسَها (٣٠٦ ش. م.)، مرَّر إصبعه على المربَّع الَّذي يحوي الرَّقم، حيث عرف أنَّ (ش. م.) هي شرق مقبرة المدفن الخاصَّة بهم، والرَّقم ٣٠٦ هو رقم القبر حسب الخريطة، فأخذ مجرفته وانطلق مسرعاً.

لم يعانِ من الوصول إلى القبر الَّذي يحمل اسماً وهميّاً، وبدأ بنبشه. وعندما اصطدمت مجرفته بصندوق حديد، توقَّف عن الحفر وبدأ بسحبه بيديه ليخرج جميع الأوراق. وقبل أن يتَّجه بها نحو مركز الشُّرطة، استخرج النُّقود الَّتي أوصى بها أبوه ـ كما قال نديم الجفَّار ـ أن تصل إلى أهالي الضَّحايا، وأخذها لغرفته.

في متاهات الزَّمن، تحدث لحظة انعطاف يخوضها المرء على ظرف الضّرورة، ثمَّ يدرك أنَّه لم يعُد يمكنه العودة لماضيه. تُداهمه حقيقة مريرة: إنَّ الحياة تنسجم بتغيير لا رجوع فيه. فذلك هو قراره الَّذي اتَّخذه دون أن يستشير أحداً، فتلك اللَّحظة، حينما حنَّت فيها عيونه على ذاته، ارتفع عالياً عن اليدين البائسة الَّتي أمسكت زمام أموره، واختار الهروب من ظلال الماضي. رحل كربيع يترك أزهاره، ولن يلتفت حتَّى ليودِّع ما فاته. وضع حدّاً للارتباط بخيوط العلاقات الهشَّة الَّتي تشبه خيوط العنكبوت، فقلبه يستحق أن يتنفَّس بحرِّيَّة، وهو يستحق من يمسك بيديه بقوَّة، يستحق الَّذي يحميه من السُّقوط... ذلك السُّقوط الَّذي هوى بهِ في أعماق الحزن.

بعد يومين، وقف غريباً بين زحمة المسافرين، لا يعرف أين يتَّجه، ولا يعرف كيف يتحدَّث تلك اللُّغة الَّتي يسمعها كصوت وحروف فقط. كل نظرة حوله كانت تذكِّره بأنَّه في عالم لا يعرف له طريقاً ولا مأوى. اللَّافتات والإشارات الَّتي كانت موزَّعة هنا وهناك، بدت كرموز مبهمة، لا تقدِّم له أدنى إشارة أو مساعدة. لكن، من بين كل هذا، تقدَّمت نحوه امرأة وعيناها احمرَّتا وهي تضع يدها حول فمها، وعندما وصلت أمامه تأمَّلت وجهه ثمَّ طول قامته، وقالت قبل أن تنهار وتضمّه في أحضانها: (مرحباً بك في برلين. مرحباً بك، بُني).

رحل تاركاً خلفه أرضه وعمله ووطنه، والحبيبة الَّتي خدعته، وداداً، تلك الفتاة الَّتي عاشت البؤس بعده، تعضُّ أصابعها ندماً، خُدعت هي الأخرى بعمِّها الَّذي لم يخبرها حقيقة المهمَّة الَّتي تطلَّبت استدراج أمير. ففي قلب العاصفة الَّتي اجتاحت حياتها، حيث الوحدة كانت رفيقتها الوحيدة، والحسرة غطاء ليلها الدَّائم، تحوَّلت إلى شبح من الحزن، تبكي بصمت، وتنزف ألماً لا يراه أحد. وجدت نفسها وحيدة تماماً، معزولة في جزيرة من الألم، طريق الجريمة قاد عمّها إلى قضبان السِّجن، وحبيبها الَّذي رحل إلى ألمانيا، تاركاً وراءه غصَّة تنمو داخلها، وطردها من عملها الَّذي كان يمثِّل لها ملاذاً وهويَّة، كل تلك الأمور حوَّلت حياتها إلى صحراء قاحلة، تائهة بين رمال الوحدة وقسوة الحياة.

التَّغيير الَّذي طرأ على شخصيَّتها كان جذريّاً وملموسا: من الغرور والثِّقة الزَّائدة بالنَّفس، إلى البكاء المستمر والانكسار. كانت تلك

الأحداث بمثابة النَّار الَّتي صهرت كل ما كانت تظنّه عن نفسها. لكن، في أعمق نقاط اليأس، وجدت شعاعاً من الضَّوء ينير دربها المظلم.

الحزن الَّذي كان يثقل كاهلها، دفعها إلى البحث عن معنى أعمق للحياة، لتجد نفسها تتقرَّب من الله بقلب مفتوح. اكتشفت قوَّة لم تعلم بوجودها من قبل، قوَّة تنبع من الإيمان والسَّلام الدَّاخلي.

بدأت تشارك في جمعيَّات إنسانيَّة، وتقضي ساعات من وقتها في مساعدة اليتامى الَّذين شاركوها الشُّعور بالفقد والوحدة، ففي عيونهم وجدت ذاتها، وفي ابتساماتهم وجدت الرَّاحة. أمَّا ساعات فراغها الَّتي كانت يجب أن ترتاح فيها من تعب اليوم، كانت تتوجَّه فيها إلى ضريح الإمام علي، لتجد في سكون المكان وقدسيَّته ملاذاً لروحها المتعبة، تصلّي، تتأمَّل، وتتحدَّث إلى الله، تشعر بقربه يلفّها كغطاء يحميها من برد العالم.

الحزن الَّذي كانت تظن أنَّه سيدمِّرها، أعاد بناءها من جديد، أكثر حكمة، وأكثر إنسانيَّة وأكثر تواضعاً.

مرَّت سبعة أشهر من حياتها حيث كانت راضية عن كلِّ قدر أحاط بها. وفي أحد الأيَّام، عندما كانت عائدة من أحد دور الأيتام، كانت تحس بتعب شديد، لكنَّها رفضت أن تذهب إلى بيتها، فتحاملت على نفسها واتَّجهت إلى الضَّريح. لم تستطع الدُّخول بسبب صداع رأسها، فوجدت لها مكاناً واتَّكأت عليه. وفي أثناء ذلك، جلست بقربها امرأة وقالت:

ـ أنتِ تقومين بعمل رائع تجاه الأيتام.

نظرت لها وداد وابتسمت، حيث ظنَّت أنَّها والدة أحد الأيتام، ثمَّ ردَّت عليها:

ـ شكراً خالتي. شكراً جزيلاً.

ـ أريد أن أطلب يدكِ لابني.

ابتسمت وداد مرَّة أخرى، وأدارت رأسها نحو المرأة. لم تتفاجأ؛ لأنَّها صادفت الكثير من تلك الطَّلبات، لكنَّ جوابها كان الرَّفض بطريقة لا تُشعر المقابل بالإحراج، دائماً ما كانت تقول: (لقد نذرت نفسي للأيتام)، والحقيقة أنَّها نذرت قلبها لشخص واحد، لا غير. لكنَّ المرأة أشارت بإصبعها، وقالت: (ذلك هو ابني. يحب هذا المكان كثيراً، وقرَّر ألَّا يبتعد عنه ثانيةً).

أدارت رأسها، فكان أمام ناظريها أمير، يلوِّح لها بيده وهو يبتسم...

نتاجات المؤسسة

١ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.١

٢ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.٢

٣ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.٥

٤ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.٦

٥ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٧.

٦ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.٨

٧ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.٩

٨ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج.١٠

٩ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج.١

١٠ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج.٢

١١ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج.٣

١٢ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج.٤

١٣ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٧.

١٤ـ حسن الخلق، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٥ـ الصدق سر السعادة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٦ـ الكذب مفتاح الخبائث، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٧ـ الشكر حصن النعم، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٨ـ الإنابة إلى الله، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٩ـ العلاقات غير المشروعة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٠ـ حقوق الوالدين بين الحفظ والتضييع، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢١ ـ الحياة الدنيا محطة في مسيرة الإنسان، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٢ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج.١

٢٣ ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج.٢

٢٤ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج.٣

٢٥ـ مبادئ الأخلاق في القرآن.

٢٦ـ الأخلاق الإسلامية.

٢٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية ومفاهيمها.

٢٨ـ المعجم الأخلاقي.

٢٩ ـ فقه الأخلاق، (مدخل إلى علم الأخلاق الاستنباطي والاجتهادي).

٣٠ ـ بحوث ملتقى الرواية الأول(تأليف مجموعة من الباحثين).

٣١. رسائل من غزة (مجموعة قصص قصيرة).

٣٢ـ بيوت العيوق (رواية).

٣٣ـ سحب القداسة(رواية).

٣٤ـ قرة عين (رواية).

٣٥ـ خير المتاع (رواية).

٣٦ـ مسبحة أمي (رواية).

٣٧ـ ترنيمة طائر الجنة (رواية).

٣٨ـ الرمق الأخير (رواية).

٣٩ ـ أزهار السنط (رواية).